9 me Année No. 419

Lundi - 14 - 7 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤١٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٤ يولية سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

عبر من سـيرة

للأستاذ عباس محمود العقاد

« بدرفسكى » موسيقى عظيم وإنسان عظيم ، وليس الموسيقى ببالغ أوج العظمة فى فنه حتى يبلغ أوج العظمة الإنسانية فى أفق من آفاقها العليا ، وإن خيل إلى الأكثرين منا أن الموسيقى طرب ، وأن الطرب لهو ، وأن اللهو والعظمة لا يتفقان

كان « بدرفسكى » عظيما لأنه كان أكبر من جميع تلك الأشياء التى يتصاغر لها الناس : كان أكبر من المال ومن المنصب ومن الأثرة ومن المتعة الرخيصة ، وكاد أن يكبر على غواية الفن لولا أنه من الفن قد استمد الكبرياء والعظمة ، فلا يهجره فترة يسيرة إلا بقوة منه ، كما يهجر المرء حياته أحيانا بقوة من دوافع تلك الحياة

وللعظمة مقاييس شتى

وبدرفسكى عظيم بأكثر من مقياس واحد : عظيم بهذا الذى ذكرناه ، وعظيم بإعطائه كل شىء حقه على قدر لا يستطيعه أوساط الناس ، وعظيم لأنه قادر على العمل العظيم فى غير ناحية واحدة . فلم ينحصر فى موسيقاه ولا فى دعوته الوطنية ولا فى غزواته السياسية ، ولم يجاوز فى كل عمل من هذه الأعمال الكبار حده المقدور

أبلغ العالم شكاة أمته بصوت الموسيقى ، فكان داعية فن وداعية وطن . ثم ترك المناصب ليثوب إلى فنه بعد أن صنع ما كان في وسعه أن يصنع ، ولم يبق من سبب لبقائه في مناصب الدولة إلا التعلق بها والاستخذاء لغوايتها ، وليس هو ممن يتعلق بهذه الفتنة أو يستخذي لهذه الغواية

وجمع الذهب : أكداس الذهب ، ثم فرق في خدمة القضية البولونية ما لو احتفظ به لكان أغنى من ملوك المال وأقدر من حكام الأمم

واشتدت به العصبية الوطنية غاية اشتدادها ، ولكنه حين وهب الجوائز للنابغين في ضروب الموسيقى وهبها عالمية لكل مجيد وكل مأمول الإجادة من أبناء القارة الجديدة

ففيه لكل من الوطن والعالم والفن نصيب بمقدار ، وبين يديه هو ميزان ذلك المقدار

ومقياس آخر من مقاييس العظمة فيه أنه جند جيشاً وساس دولة ووجه الدول الأخريات توجيهاً لم يحلم به حالم من أبناء وطنه ، ولكنه لم يكن من الحالمين وهو أجدر أبناء بولونيا بالإمامة في عالم الأحلام

ومن يدري ماذا كان يجري في القارة الأوربية لو استمع أبناء قومه لنصحه واتبعوا هداه في العلاقة بينهم وبين جيرتهم من الروس ... فلعل الذي كان يجري يومئذ غير الذي جرى الآن ، وخير مما جرى أو سيجري بعد الآن !

بدرفسكي رجل عظيم لأنه موسيقي عظيم

وهذا شيء ينبغي لنا أن نفهمه نحن الشرقيين خاصة لأننا أحوج إلى فهمه من جملة العالمين

نحن الشرقيين لا نفهم ما الدنيا وما الحياة في الدنيا حتى نفهم ما التعبير عن الحياة ، ونفهم أن الفنون أرفع وأجمل ما وهب الإنسان من وسائل التعبير عن حياته بل عن حياتيه : الحياة الظاهرة التي لا خفاء بها ، والحياة الباطنة التي ما خلت قط ولن تخلو يوماً من خفاء

فليست الأصداء الموسيقية لغواً من لغو البطالة ، ولا هي بديل من ذيول الفراش أو ذيول السرير ، ولا هي بتسلية للأذن تستطيبها كما يستطاب السجع الموزون والرنين المنوم

كلا . ليست الأصداء الموسيقية كذلك ، وليست الحياة شيئاً إن كانت الأصداء الموسيقية كذلك

نعم ليست الحياة شيئاً إن لم يكن لها تعبير ، وليست هي شيئاً إن كان كل التعبير عنها لغواً أو تسلية أو متعة فراش

ومن السهل أن تزدري الرجل الذي يبتذل فنه لشهوة غيره ، وليس من السهل أن تزدري الرجل الذي يعبر لك عن حياتك ويفتح لك من مغالقها ما عسى أن يحتجب عنك ؛ فإنما هو واهب حياة وليس بواهب شهوة أو تسلية أو فضول

لهذا يلتقي الموسيقي العظيم والرجل العظيم في إنسان واحد .

ولهذا نحسب بدرفسكي آية من آيات عصره ، لأنه استرعى النظرة الجدية منهم حين أسندوا إليه رياسة الوزارة في قومه . وما كانت رياسة الوزارة علواً يرتفع إليه بعد أن رفعته العبقرية ، ولا صوتاً مسموعاً في جانب من جوانب الأرض بعد أن سمع صوته في كل جانب منها ، وإنما كانت ولاية الموسيقي لرياسة الوزارة دليلاً على النظرة الجدية التي ينظرون بها إلى فنه ، أو ينظرون بها إلى الحياة والتعبير عن الحياة

ولو سئل أحد لم كان بدرفسكي رجلاً عظيماً لما خطر له أن يقول : إنه كان عظيماً لأنه تولى رياسة الوزارة البولونية في عهد من العهود ، ولكنه يقول إنه كان عظيماً لأنه كان أهلاً للمجد وأهلاً للاضطلاع بالأمانة . ولا تناقض بين هذا وبين عزفه على البيان ، واختراعه الجديد من الألحان ، بل هذا حجة له على صدق العظمة فيه واقتداره على كل ما يقتدر عليه العظيم

الحياة تأثير وتعبير . وماذا بعد هذين ؟ بل ماذا في التأثير نفسه إن لم يتممه التعبير ؟

فالعبقرية التي تتمم الحياة وتعطيها معناها ليست بالمنزلة الهينة بين منازل الإنسانية ، وليست بالنافلة بين النوافل ولا باللغو الذي يكون أو لا يكون على حد سواء

* * *

قلت في ذكرى من ذكريات الموسيقار المصري النابغة سيد درويش إن « الأمة الكاملة عجزت مع هذا عن قضاء حق

الرجل الفرد فات بينها وهي لا تعلم أنها أصيبت من فقده بعصيبة قومية ، ولم تبال حكومتها أن تشترك في تشييع جنازته وإحياء ذكره كما تبالي بتشييع جنازات الموتى الذين ماتوا يوم ولدوا والمشيعين الذين شيعتهم بطون أمهاتهم إلى قبر واسع من هذه الدنيا يفسدون فيها من أجوائها ما ليست تفسده العظام النخرات والجثث الباليات . . . أنقول مع هذا ؟ بل ما لنا لا نقول إن الرجل قد أهمل في حياته وبعد مماته ذلك الإهمال القبيح لأجل هذا ؟ أو ليست آدابنا هي تلك آداب هذا الشرق الجامد الذليل الذي تساورته الرزايا وران عليه الطغيان ؟ أو ليست آداب هذا الشرق المسكين تعلمنا أن العزيز العظيم من يسيء إلى الناس ، وأن المهين الحقير من يتوخى لهم الرضى ويوطئ لهم أسباب السرور ؟ أو ليس من شرع الاستبداد وسنن آدابه أن يكون الرجل عظيما لأنه يطغى ويقهر ويكسر النفوس ويحني الظهور ويعفر الوجوه ؟ أو ليس هذا أعظم ما رأينا من العظمة في هذا الشرق الآفل منذ علم أبناؤه أنهم صغراء حقراء ، فلن يكون الذي يتقدم إليهم بالرضى والسرور إلا أصغر منهم صغراً وأحقر منهم حقارة ؟ بلى ، وا أسفاه ! إن دفائن الاستبداد ما برحت عالقة فينا بدخيلة السرائر ، ننفضها فلا تنتفض إلا ذرة بعد ذرة ، وزن المنفوض منها فإذا هو لا يزيد في الهباء ولا ينقص راكد ذلك التراث ... »

وقد مضت قرابة عشرين سنة بعد وفاة سيد درويش ونحن لم نتقدم خطوة في هذا المضمار . فلا تزال الأصداء الموسيقية ذيلاً من ذيول الفراش عند جمهرة السامعين ... أتشك في ذلك ؟ استمع إليهم وهم يصرخون ويزعقون بين لحظة وأخرى ، ثم حاول أن توفق بين هذا النشوز الصادع وبين شعور السامع بانسجام الأنغام وائتلاف المعاني وانتظام الأوزان . إن التوفيق بينهما لمستحيل ، ولكن لا صعوبة في التوفيق بين هياج الحس المستثار بتصور الشهوة وبين هذه الثورة الناشزة في الحناجر والأيدي والأقدام . فهم على مقربة من الفراش في صورته الحيوانية المريضة ؛ ثم هم لا يستمعون ما يبعدهم عنه أو يحولهم إلى فكرة غير التفكير فيه . وعليهم بعض الوزر وعلى الموسيقيين والمطربين وعلى الماضي الذي خلف لهم ذلك التراث بقية الوزر التي لا ندري متى يدركها النفاد !

وبيننا وبين الخلاص من هذه البلية عقبتان : أولاهما أننا نحسب الفنون لهو بطالة . وثانيتهما أن اللهو في عرفنا إسفاف وضيع يعيره الإنسان فضول وقته ، ولعل وقته كله فضول

من يصدقني من هؤلاء إذ أقول له إن الموسيقى جد رفيع وشاغل مقدس وليس بهزل ولا مجانة ؟

لا أحد

فلننقل لهم إذن أن پدرفسكي الموسيقي تولى رياسة الوزارة في وطنه وتولى قبل ذلك زعامة قومه باعترافهم واعتراف الغرب كله ، فإنهم ليصدقون إذن وهم حائرون أن الموسيقى جد والأمر لله !

ثم إنهم ليصرخون بعد ذلك ويزعقون كلما رجعوا إلى « التخت » الذي هو عندهم دهليز الفراش ، ولا فضل له عليه !

عباس محمود العقاد

أبو المظفر الأبيوردي

شاعر العرب فى القرن الخامس

للدكتور عبد الوهاب عزام

(تتمة)

— ٦ —

فخر الأبيوردى بأمويته واعتزّ بها، ولكن عصبيته لبنى أمية لم تورطه فى العداوة التى أثارتها الفتن بين الأمويين والهاشميين، فهو يفخر ببنى عبد مناف جميعاً لا يفرق بين هاشم وأمية كما يفخر بقرشيته وعربيته ويمدح العباسيين ويذكر مآثرهم، وإذا تحدث عن الصحابة وفّى الخلفاء حقهم من الثناء والإجلال كما يتحدث المسلم الذى لم تخالط نفسه أهواء العصبية

يقول فى مدح المستظهر بالله:

يا خير من بشرت بعد النبى به   عدنانُ وادّرعت عزّاً به مضر
أحيا بك الله ما كانت تُدلّ به   عُلى قريش ومنها السادة الغرر
لك الوقار من الصدّيق تكنفه   مهابة كان يحبوها بها عمر
وجود عثمان والآفاق شاحبة   ونجدة من علىّ والقنا كِسر
وعِلمُ جدك عبد الله شِيب به   دهاؤه حين أعيا الوارد الصدر

ثم يذكر الخلفاء العباسيين إلى المعتصم

ويقول فى قصيدة يمدح فيها الرسول والخلفاء الراشدين:

وكلّ صحبك أهوى فالهدى معهم   وغَرب من أبغض الأخيار مفلول
وأقتدى بضجيعيك اقتداء أبى   كلاهما دمُ مَن عاداه مطلول
ومن كعثمان جوداً والسماح له   عبء على كاهل العلياء محمول
وأين مثل علىّ فى بسالته   بمأزق من يَرِدْه فهو مقتول
إنى لأعذل من لم يُصفِهم مقة   والناس صنفان: معذور ومعذول

ونجده فى قصيدة أخرى يفخر بالأمويين والعباسيين والعرب كلهم

— ٧ —

كان الأبيوردى شاعر العرب فى القرن الخامس كما كان المتنبى شاعرهم فى القرن الرابع؛ فشعره ينطق بإباء العرب وعزتهم، ويُعرب عن طباعهم وأخلاقهم، ويتحدث بمآثرهم ومفاخرهم، ويمدح كثيراً من رؤسائهم، ويرثى لحالهم فى عصره ويأنف ألاّ ينالوا حقهم. وهو كثير الحنين إلى بلاد العرب، نزّاع إلى البداوة تشبهاً بهم

والفرق بين أبى الطيب المتنبى وأبى المظفر الأبيوردى أن الأبيوردى أكثر قصداً فى فخره وثورته وتحدثه عن مطامعه؛ على أن له أصلاً فى الملك يجعل كلامه أقرب إلى القبول وأدنى إلى التصديق

وكذلك يتشابه الشاعران العظيمان فى العزوف عن الدنايا، والترفع عما فخر به الشعراء من معاقرة الخمر والاسترسال فى الشهوات

ولا يعوز قارىء ديوان الأبيوردى الدليل على هذه الأخلاق والنزعات؛ يقول فى اعتداده بنفسه:

وإنى إذا أنكرتنى البلاد   وشيبَ رضا أهلها بالغضب
لكالضيغم الورد كاد الهوان   يدبّ إلى غابه فاغترب
فشيدت مجداً رسا أصله   أمتّ إليه بأمّ وأب
ولم أنظم الشعر محبّاً به   ولم أمتدح أحداً عن أرب
ولا هزنى طمعٌ للقريض   ولكنه ترجمان الأدب

ويقول:

وما أنا ممن يملأ الهول صدرَه   وإن عضه ريب الزمان فأوجعا
إذا ما غسلت العار عنى لم أُبَل   نداء زعيم الحى بشر أو نعى

والأبيوردى لا يرضى بعيشته، ولا يسكن إلى حاله، ولكنه يأنف أن يُسف إلى المطمع الدون، ويستكبر أن تضرعه الحاجة إلى الذل، بل يرى الدنيا كلها أصغر من أن تذل لها نفوس الأحرار. يقول:

قضت وطراً منّى الليالى فلم أبح   بشكوى ولم يدنس علىّ قميص
أغالى بعرضى والنوائب تشترى   وغيرى يبيع العرض وهو رخيص
وقد علمتْ عليا كنانة أننى   على ما يزين الأكرمين حريص
فظهرى بأعباء الخصاصة مثقل   وبطنى من زاد اللئام خميص

ويقول:

وإنى لأقرى النائبات عزائماً   تروض إباء الدهر والدهر شامس

وأحقر دنيا تسترقُّ لها العلى ... مطامع لحظى دونها متشاوس
تجافيت عنها وهى خود غريرة ... فهل أبتغيها وهى شمطاء عانس؟
أغالى بعرضى فى الخصاصة، والمنى ... تراودنى عن بيعه، وأماكس
وأصدى إذا ما أعقب الرىّ ذلة ... وأزجر عيسى وهى هيم خوامس
ولى مقلة وحشية لا تروقها ... نفائس تحويها نفوس خسائس

ويمثل فى أبيات أخرى ما يتنازع نفس الأبى الذى بدلت أحواله غِيَرُ الزمان :

ولما انتهت أيامنا علقت بنا ... شدائد أيام قليل رخاؤها
وكان إلينا فى السرور ابتسامها ... فصار علينا فى الهموم بكاؤها
أصيبت بنا فاستعبرت وضلوعها ... على مثل وخز السمهرى انطواؤها
ولو علمت ماذا تمانيه بعدنا ... لما شمتت جهلاً بنا سفهاؤها

إلى أن يقول :

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت ... لنا رغبة أو رهبة عظماؤها
وجاست بنا الجرد العتاق خلالها ... سواكبَ من لبانهن دماؤها
فصرنا نلاق النائبات بأوجه ... رقاق الحواشى كاد يقطر ماؤها
إذا ما أردنا أن نبوح بما جنت ... علينا الليالى لم يدعنا حياؤها

وأنفة الأبيوردى وعفته لا ترضيانه بأدنى العيش، فهو طماح إلى العلى، ساع لها، مغامر من أجلها :

رأت أميمة أطمارى وناظرُها ... يعوم فى الدمع منهلاً بوادره
وما درت أن فى أثنائها رجلاً ... ترخى على الأسد الضارى غدائره
أغرّ فى ملتقى أوداجه صيد ... حمر مناصله، بيض عشائره
إن رث بردى فليس السيف محتفلاً ... بالغمد وهو وميض الغرب باتره

وهو يرى نفسه كفء المعالى التى يطمح إليها، وأهلاً لها بنسبه وهمته :

لله درى فكم أسمو إلى أمد ... والدهر فى ناظريه دونه شَوَس
أبنى عُلَىّ رامها جدى فأدركها ... وكان فى غمرة الهيجاء ينغمس
فأى أروعَ منى نبهت همى ... وأى شأو من العلياء ألتمس

ويقول :

سأحمل أعباء الخطوب فطالما ... تعاشت على الأين الجمال القناعس
وأنتظر العقبى وإن بعُد المدى ... وأرقب ضوء الفجر والليل دامس
فلله درى حين توقظ همتى ... مساورة الأشجان والنجم ناعس

هذه الأنفة وهذا الإباء وهذا الطموح وهذه الكبرياء التى أوحت إليه أنه دون مكانته، وأن عليه أن يطلب مكانة تليق به وبآبائه، أكثرت حديثه عن مباشرة الخطوب وركوب الأهوال فى سبيلها والمحاربة من أجلها، يقول :

تقول ابنة السعدى وهى تلومنى ... أمالك عن دار الهوان رحيل؟
فإن عناء المستنيم إلى الأذى ... بحيث يذل الأكرمون طويل
وعندك محبوك السراة مطهم ... وفى الكف مطرور الشباة صقيل
فثب وثبة فيها المنايا أو المنى ... فكل محب للحياة ذليل

وقال :

سواى يجرّ هفوته التظنّى ... ويرخى عَقد حبوته التمنى
ويُلبس جيدَه أطواقَ نعمى ... تشف وراءها أغلال مَنّ
إذا ما سامه اللؤماء ضيماً ... تمرّغ فى الأذى ظهراً لبطن
وظل نديم عاطية وروض ... وبات صريع باطية ودن
وأشعر قلبه فَرَق المنايا ... وأودع سمعه نغم المغنى
وصلصلةُ اللجام لدىّ أحرى ... بمز فى مبساءته مُبِين

إلى أن يقول :

وها أنا أوسع الثقلين صدراً ... ولكن الزمان يضيق عنّى

ويقول :

يا صاحبى خذا للسير أهبته ... فغيرنا بمناخ السوء محتبس
أترقدان وفرع الصبح منتشر ... عليكما وذَماء الليل مختلَس
إن تجهلا ما يناجينى الحفاظ به ... فالرمح يعلم ما أبغيه والفرس

سخط الأبيوردى وتحدثه بالثورة كانا نتيجة إبائه وطموحه وإنكاره المنزلة التى نشأ فيها كما كانا من سخطه للعرب واستنكافه أن تنزع المقاليد من أيديهم، وتوكل الأمور إلى غيرهم . فالنعرة العربية بيّنة فى شعره، والأنفة للعرب مكررة فى قصائده . قال فى قصيدة يمدح فيها أبا النمر المروانى أحد أقاربه :

دهر تذأبَ من أبنائه نقَد ... وأوطئت عربٌ أعقابَ أعلاج
وأينع الهام لكن نام قاطفها ... فمن لها بزياد أو بحجاج؟

وكم أهبنا إليها بالملوك فلم … نظفر بأروع للغماء فراج
وأنت يا ابن أبي الغمر الأغر لها … فقل لذود أضاعوا رعيها : عاج
وألقح الرأى ينتج حادثاً جللاً … إن الحوامل قد همت بإخداج
وإن كويت فأنضج غير متئد … لا نفع للكى إلا بعد إنضاج

إلى أن يقول :

متى أراها تثير النقع عابسة … تردى بكل طليق الوجه مبلاج
ولاّج بابٍ أناخ الخطب كلكله … به ومن غمرات الموت خرّاخ
فى غلمة كضوارى الأسد أحنقها
زأر العدى دون غابات وأحراج . الخ

وله قصيدة يمدح بها بعض الوزراء من أسرته أولها :

من رام عزا بغير السيف لم ينل
فاركب شبا الهندوانيات والأسل

ويقول فيها :

وخالفت هاشماً فى ملكها عُصَبٌ
صاروا ملوكا وكانوا أرذل الخول
حنّت إليهم ظبى الأسياف ظامئة
حتى أبت صحبةَ الأجفان والخلل... الخ

ويقول فى مدح أبى الشداد العقيلى يشكو حال العرب ويحرضه على أن يطلب لهم المكانة الجديرة بهم :

فإيه أبا الشداد إن وراءنا … أحاديث تروى بعدنا فى المعاشر
فمن لى بخِرْق ثائر فوق سابح … تردّى بإعصار من النقع ثائر
إذا حفزته هزة الروع خلته
على الطِّرف صقراً فوق فتخاء كاسر
أترضى وما للعُرب غيرَك ملجأٌ … توسدّهم رملىْ زرود وحاجر ؟
بهم ظمأٌ أدمى الجوانح بَرحُه
وذموا إلى الشعرى احتدام الهواجر

وأما إعجابه بأخلاق العرب وحنينه إلى ديارهم فى مدحه وغزله فيُذكِران بأبى الطيب المتنبي . فهو يحن إلى البداوة ويتغزل بالبدويات ، وإذا تحدث عن أمانيه وأعوانه فالمثل الأعلى عنده فتيان العرب

يقول فى قصيدة يمدح بها المستظهر بالله :

معى كل فضفاض الرداء سَمَيْدع
أصاحب منه فى الوقائع أروعا
غذته رُبَى نجد فشبّ كأنه … شهاً مشرفىّ يقطر السم منقعا
يُريع ، إذا ارتجّ الندىّ بمنطق ،
كلاماً كأن الشيح منه تضوعا
ويُروى أنابيب الرماح بمأزق
يظل غداةَ الروع بالدم مُترَعا ... الخ

ويقول فى قصيدة يمدح بها أحد رؤساء العرب :

وترويك فى قبس حياض تُظلها
ذوابل فى أيدى ليوث خوادر
بنو عربيات تحوط ذمارها … كماة كأنضاء السيوف البواتر

ويقول فى مدح سيف الدولة صدقة بن دبيس :

له عمة لوثاء تفتر عن نهى … علمنا بها أن العمائم تيجان

وحنينه إلى البداوة وعاداتها يتبين فى مثل قوله :

وأسرى بميس كالأهلة فوقها … وجوه من الأقمار أبهى وأبهر
ويعجبنى نفح العَرار وربّما … شمخت بعرنينى وقد فاح عنبر
ويخدش غمدى بالحمى صفحة الثرى
إذا جرّ من أذياله المتحضر
فما العيش إلا الضب يحرشه الفتى … وورد بعستن البرابيع أكدر
بحيث يلف المرء أطنابَ بيته … على العز والكومُ المراسيل تنحر
ويغشى ذراه حين يمّم للقرى … ويسمو إليه الطارق المتنوّر

هذا طرف من أخبار هذا الشاعر العربى الأموى العظيم . ولعل المتأدبين من شباب العرب يجدون فى شعره متعة النفوس الكريمة ، وشحذ الهمم الطامحة ، ونمطاً من الكلام البليغ ، اتفق على تجويده اللفظ والمعنى . ولعل الفرصة تتاح لبحث مفصل جامع فى أدب هذا الشاعر

عبد الوهاب عزام

إستدراك : ورد فى المقال السابق في العمود الأول فى السطر العشرين كلمة : معاوية ، والصواب : معاويةَ

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

أحزان الاسكندريين توجه الفكر إلى نظرة فلسفية — بين الاحتلال والاستقلال — الاحتقلال — الألبان — عمود ونصف — غرائب التعابير — الكاتب العموى — شيطنة أدبية — هل في الأدب ديكتاتورية ؟ — بعض ما يجهل الشبان — صيد الحوت في بحر الشمال ! — كلمة صريحة إلى الأستاذ « فريد أبو حديد » .

أحزان الاسكندريين

وهذا خطاب جديد من الأستاذ عبد اللطيف النشار ، وهو يدعوني إلى أداء دَيْن الإسكندرية شعراً ، كما أديته نثراً ؛ ثم يهتف :

نبكي لغِرناطة حزناً ولم نرها ... فكيف بالثغر يذوى تحت أعيننا
يزول يوماً فيوماً من محاسنه ... ما كان ملء الليالي بهجة وسنا

وأجيب بأن من اليسير عليّ أن أوجه خيالي إلى فواجع الإسكندرية ؛ فما أدمت التفكير في نكبتها لحظات إلا شعرت بدُوار عنيف يزلزل إحساسي بالوجود

والأستاذ النشار يروي في خطابه حديث اليوناني الذي رأى بعيني رأسه رجلاً في جبة خضراء يخرج من قبر « أبي الدرداء » ويعتنق الطوربيد ؛ ثم يضعه في فناء المحافظة ، ويأمره بأن لا ينفجر[1] . (وهو الطوربيد الذي لم ينفجر في دار المحافظة على بعد ثلاثة أمتار من قبر أبي الدرداء ، وقد وجد الطوربيد ملفوفاً في باراشوت أخضر اللون)

ثم يقول الأستاذ النشار في هامش الخطاب :

« فاتني أن أؤكد لك أن شعور العامة أنه يومٌ دينيٌّ من كبار المواسم لظهور كرامة فيه لأبي الدرداء الذي قتله البرد كراهية منه للنار ، فهو يحمي الاسكندرية من الاحتراق »

وأقول : إني لا أعرف بالضبط أين دُفن أبو الدرداء ، ولا أعرف المكان الذي تحتله هذه « الرواية » بين الجِدّ والمزاح ، ولكني مع هذا لا أستبعد أن يكون للأموات أياد في مصاير الأحياء ؛ فقد حبّرتُ أكثر من سبعين صفحة من صفحات « التصوف الإسلامي » في تأييد نظرية « وحدة الوجود » .

ولم يبق عندي شكٌّ في أن الوجود كله مربوط برباط وثيق من الكهرباء ، بحيث لا تنتقل ورقة من الخضرة إلى الذبول ، ولا يتحول جسدٌ من الحياة إلى الموت ، بدون تأثير في الوحدة الوجودية ، وإن غفل عن ذلك من يكتفون بما تقع عليه الحواس

وإذن فمن حق الإسكندرية أن تستنجد بأرواح أبنائها البَرَرة والفَجَرة من أقدم عهودها إلى اليوم . ومن حقها أن تثق بأن كربها لن يطول ، لأنه ليس إلا مرحلة قصيرة من مراحل الوحدة الوجودية وهي تنتقل باستمرار من وضع إلى وضع بدون أن يظهر أنها تفرق بين السعود والنحوس

ثم ماذا ؟ ثم أقول بأنْ لا موت في هذا الوجود ، فليس فيه موجودٌ غيرُ حيّ ، ولو كان هباء تذروه الرياح ، فما كانت الحياة إلا عَرَضاً من أعراض الوجود ، لأنه في ذاته أصلٌ من الحياة ومن الموت

ولهذه الفكرة الفلسفية تفاصيل لا يتسع لها هذا الحديث

بين الاحتلال والاستقلال

دعونا أصدقاء الرسالة إلى الموازنة بين حالين من أحوال الشعوب : هما حال الاحتلال وحال الاستقلال ، فكيف أجابوا ؟

كان جواب الأديب « م . ف . م »[1] أن عهد الاحتلال في مصر كان أفضل من عهد الاستقلال ، ولكن كيف ؟

كانت جداول « المناوبات » تُنفَّذ بدقة في عهد الاحتلال ، وكان التلاميذ أكثر التفاتاً إلى الدروس ، وكان الزعماء أقوى وأقدر على النضال الشريف

وأقول إن هذه الشواهد لم تقنعني بأن الاحتلال أفضل من الاستقلال ؛ فجداول المناوبات لا تحتاج في مراعاتها إلى عناء ، وأنا مستعدٌّ لنقل جميع شكاياته إلى وزير الأشغال

أما انصراف بعض التلاميذ عن الدروس فله أسباب غير الاستقلال . وأما قوة الزعماء في عهد الاحتلال فلا ترجع لمزية

(١) أنا لا أدغم « أن » الناصبة في « لا » النافية ، فأرجو حضرة المصحح أن يتفضل بمراعاة ذلك

(١) رمزنا إلى هذا الأديب لئلا يؤذيه التصريح في هذا الشأن الدقيق

أساسية من مزايا الاحتلال ، وإنما هي ثورة طبيعية يورثها الشوق إلى الاستقلال

ويقول هذا الأديب : « الاستقلال حلو ولذيذ ، ولكن ... »

وأقول إن الاستقلال لا يوصف بأنه حلو ولذيذ أيها الفلاح الأديب ، وإنما يوصف الاستقلال بأنه متعب وشاق ، لأنه يفرض على جميع أبناء الأمة أن يكونوا رجالاً أقوياء ، وأمناء ، والتسلح بالقوة والأمانة لا يُنال بغير جهاد عنيف

أما الأديب أحمد العجمي فيقول : إن صورة العبد الآمن في رحى سيده هي صورة الشعب الذي ينعم بالرغد تحت ظل الاحتلال ، ثم يقول إن الاستقلال ليس وسيلة وإنما هو غاية من أبعد الغايات في الحياة

وأنا أنتظر آراء أصدقاء « الرسالة » في هذا الموضوع الدقيق على شرط أن يتركوا العبارات الخطابية ، لأني أحب أن يتضح هذا الأمر بأساليب تفرس الإيمان الوثيق ، مع الترحيب بالآراء التي أبداها « فلاح التوفيقية » لأن أمثال هذه الآراء تتيح فرصاً كثيرة لتبديد الشبهات التي توجه إلى عهد الاستقلال

الامتثال

ليست هذه كلة الأستاذ إسعاف النشاشيبي ولا كلة المرحوم أحمد زكي باشا ، وإنما هي كلة نحتها اللغوي المحقق الأستاذ محمد وحيد الأيوبي

الألعبان

وما دام الحديث ذا شجون فأنا أذكر نادرة تمثل أخطار الأقلام في هذه البلاد ، وتبين أن عداوة الشعراء في العصر القديم ليست أخطر من عداوة الكتّاب في العصر الحديث ... والكاتب في زماننا أقدر من الشاعر على الإيذاء : لأن حرية التعبير تخلق له آفاقاً لا يصل إليها الشاعر المحبوس في قفص القوافي والأوزان ، ولأن للكاتب مجالات لا يجري فيها الشاعر ، وإن بالغ في التلطف والاحتيال

كان الأستاذ وحيد الأيوبي يعادي الزعيم سعد زغلول ، وكان يكتب في قدحه عبارات لذاعة تحت عنوان « الألعبان » أشهرها العبارة الآتية :

« الآن ، وبعد فوات الأوان ، يتكلم عن السودان ؟ أما ألعبان !!! »

وقد رأت « دار الهلال » أن تصدر مجلة فكاهية باسم « الألعبان » فرفضت وزارة الداخلية بحجة أن في هذا الاسم تعريضاً بالزعيم سعد زغلول ، وسمحت بأن يحول الاسم من وضع إلى وضع فيصير « الفكاهة » لا « الألعبان »

أليس هذا دليلاً على أن الكاتب خَلَفَ الشاعر في إيذاء الرجال ؟

اتقوا شر الكتاب ولا تخاطبوهم إلا باحتراس ، فهم شعراء هذا الزمان !

عمود ونصف !

كانت أطول مقالة للأستاذ عبد القادر حمزة لا تزيد عن عمود ونصف ، إلا أن يجدّ ظرفٌ قاهر يوجب الترسل الفياض

أكتب هذا بمناسبة خطاب أرسله إليّ الأستاذ حافظ محمود سكرتير لجنة الاحتفال بتأبين صاحب البلاغ ؛ ومنه علمت أن الوقت لا يتسع لكلمتي في رثاء ذلك الصديق الغالي

ولو كانت لجنة الاحتفال تعلم الغيب لعرفت أن كلتي في رثاء عبد القادر حمزة لم تكن تزيد عن عمود ونصف ، اقتداء بصاحب البلاغ في اكتفائه بعمود ونصف ، وتوجيهاً لمن يفوتهم أن بعض المقامات يجعل الإيجاز أبلغ من الإطناب

أنظروا ، ثم انظروا ، عواقب المخلصين ؟

كنت وحدي الصديق لصاحب البلاغ في كثير من العهود ، وأنا اليوم لا أجد فرصة أتحدث فيها عنه بما أشاء ، لأن الموت صرف عنه المداوات الوقتية ؛ فأصبح أصدقاؤه يعدون بالألوف وألوف الألوف ، بحيث يتعذر على أصدق محبيه أن يودعه بكلمة رثاء في حفل مشهود

ما أسعدني بما صرت إليه يا أخي وصديقي !

لقد كنت أخشى أن تلاحقك المداوات فلا يقوم بتأبينك رجلٌ غيري

ولكن نحن في مصر ، يا أخي وصديقي ، مصر التي تحفظ الجميل لأبنائها الأوفياء وإن تظاهرتْ حيناً بالتنكر لجدهم الأصيل

غرائب التعابير

إن قلت : « كان المرحوم مصطفى كامل يطالب بالجلاء ، كانت « المرحوم » كلة خفيفة الوزن في الترحم على رجل من

نوادر الزعماء ، وإنما ينبغى أن تقول : « كان المغفور له مصطفى كامل ... »

وإن قلت : « كان مصطفى رحمه الله يرى ... » كانت عبارة « رحمه الله » عبارة جميلة . وإن قلت : « كان مصطفى كامل غفر الله له يرى ... » كان فى عبارة « غفر الله له » تعريض !

فالوصف يخالف العبارة المأخوذ عنها فى القيمة الأدبية ، بلا موجب معقول ، وإنما كان ذلك لأن التعابير لا تأخذ قوتها من المنطق فى جميع الأحيان ، وإنما تخضع للعُرف وهو الذى يكوّن الإحساس

الكاتب العمومى

وحين دُعى السنيور ميكلانج جويدى للتدريس فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٧ كان عليه ذوقياً أن يقول فى المحاضرة الافتتاحية كلمة ثناء على مدير الجامعة والسكرتير العام ، ولم يلتفت إلى اللقب الأخير من الوجهة الاصطلاحية ، وإنما ترجمه عن الفرنسية فجعله « الكاتب العمومى » فضحك الجمهور ، وخرج على بك عمر رحمه الله ، وهو ساخط على « ذوق » المستشرقين !

وكان على بك عمر هو السكرتير العامّ للجامعة المصرية فى ذلك الحين

شيطنة أدبية !

كنت قلت : إن مجلة الثقافة لا تدقق فى اختيار ما تنشر من الأشعار ؛ فاعترض أديبٌ لا أسميه بأن مجلة الرسالة تقع فى مثل هذا الخطأ بنشر أشعار محمود حسن إسماعيل ! !

والاعتراض غير مقبول ، مع الاعتراف بما فيه من طرافة الشيطنة الأدبية

هل فى الأدب ديكتاتورية ؟

يصر الأديب عزت حماد منصور على القول بأن فى مصر ديكتاتورية أدبية ، وبأن الأدباء الشبان يعانون عِداء من الأدباء الكهول ، ثم يعجب من أن تتاح الفرصة لظهور بعض الشبان دون بعض ، كالذى تصنع « الرسالة » فى نشر مقالات هذا الأديب ، وإغفال مقالات ذلك الأديب ، بلا حدود واضحة تبين سبب النشر وسبب الإغفال

وأجيب بأن من الصعب أن أصدق أن لمجلة الرسالة نية فى تقديم فريق على فريق ، وإنما يرجع الأمر كله إلى « سياسة القول » فالأديب الشاب قد يتوهم أن له أن يقول ما شاء ، متى شاء ، بدون أن يلاحظ أن للكلام مقامات لا يدركها غير كبار العقول ، وهذا هو السر فى إغفال أكثر مقالات الشبان

وأنا أعرض الموضوعات الآتية :

١ — النص على غلطة جوهرية فيما تنشر « الرسالة » لكتابها المعروفين

٢ — تقديم اقتراح مبتكر لم تنشره الجرائد فيما يجب لإغاثة المهاجرين

٣ — إعداد بحث موجز فى تاريخ المدائن التى تعانى أهوال الحرب

٤ — كلمة وجيزة عن الألفاظ التى حرفتها الجرائد أيام الثورة العراقية ، مثل : « باكوبا » و « فالوجا » فى مكان : « بَعْقُوبه » و « الفَلُّوجة »

٥ — كلمة فى نقد أسئلة امتحان المسابقة لترقية التعليم الثانوى

٦ — كلمة فى التعقيب على أحاديث رئيس الوزراء بأسلوب برئٍ من التحامل والإسفاف

٧ — مقال موجز « عن خط ستالين »

٨ — كلمة عن الأماكن التى سميت باسم « ماجينو » فى القاهرة قبل أن يستولى عليه الألمان

٩ — قصيدة فى الترحم على « قطار البحر » وأيامه البيض

١٠ — قصيدة فى التوجع للمكاره التى تعانيها سورية ولبنان وقد أصبحتا ميادين حروب لثلاثة جيوش

١١ — خبر أدبى لا تعرفه اللجنة التى ألفت لتأبين صاحب « البلاغ »

١٢ — أقصوصة تصور سخرية الإسكندرية من غرور المتمدين

١٣ — كلمة عن نوادر المخطوطات فى مكتبة الإسكندرية لتسارع بنقلها إلى مكان أمين

١٤ — مقال وجيز تحدد به الأغراض الصحيحة لوزارة الشؤون الاجتماعية

١٥ — كلمة صريحة فى الأسباب التى دعت إلى انصراف فريق من الشبان عن الزواج

١٦ — دعوة الجامعة إلى إنشاء قاعة للمحاضرات في قلب مدينة القاهرة

أما بعد فأنا أقرر للمرة الأولى بعد الألف أن الأدب من صور الحياة ، فافهموا عصركم وتأثروه ، يا أبناء هذا الجيل ، ليكون في أدبكم قوة وروح ، ولا تصنعوا ما صنع الأديب الذي سخر منه صاحب مجلة « منبر الشرق » وقد توهم ذلك الأديب أن الكلام في اليأس والترحيب بالموت يُقبَل من جميع الناس وفي جميع الأحايين

بعض ما يجهل الشبان

والشبان يتوهمون أن الكتّاب المشاهير(1) لا يُرَدُّ لهم قول ، وهذا خطأ فظيع ، فلأولئك المشاهير مقالات يطوونها آسفين ، إلى أن تسمح بنشرها الظروف

قضيت عامين كاملين في تعقب « اسكندرية أبي الفتح » ولم أر فرصة لنشر هذا البحث ، لأن الأستاذ إسعاف النشاشيبي سكت عنه بعد أن تعرض له في مجلة « الرسالة » منذ ثلاث سنين

الشبان وصيد الحوت

حدثنا الأستاذ أنطون بك الجميّل قال :

« كان لأحد الأدباء مقال مؤجّل في جريدة الأهرام ، واشتط هـذا الأديب في السؤال عن مصير ذلك المقال ، فقلت إن الجريدة مشغولة بقضية المؤامرات ، فقال : إن موضوع مقاله أهم من تلك القضية ، فقلت : وما الموضوع ؟ فأجاب : صيد الحوت في بحر الشمال ! »

ومن المؤكد أن هـذه قصة خيالية من مبتكرات رئيس تحرير الأهرام ، وإن أقسم على صحتها بأغلظ الإيمان

ولـكن لهذه القصة أشباه ونظائر تقع في كل يوم ، فأكثر أدباء الشباب يصيدون الحوت في بحر الشمال ، ولو صادوه في أيام الهجوم على التزويج لـكان كلامهم فيه من ألطف ما تنشر الجرائد والمجلات

ولـكنهم مع الأسف يصيدون في غير أوقات الصيد

إلى الأستاذ فريد أبو حديد

صديقي العزيز

قراء « الرسالة » يذكرون ـ إن كنتُ نسيت ـ أني وجهت إليك تحية خالصة بمناسبة سفرك إلى السودان ، وهي تحية لم أرد بها التودد إليك ، وإنما أردت بها إكرامك وإعزازك ، على نحو ما أصنع في التنويه بمواطنيّ الفضلاء حين يمضون لأداء بعض الواجبات في أحد البلاد العربية أو الإسلامية

فما الموجب للكلمة الجافية التي ندّت عن قلمك في مخاطبتي ؟

وكيف تصنع بنفسك هذا الصنيع فتنفّر أحد محبيك بدون أن تفكر في عواقب ذلك ، وقد أصلحت الأيام ما كان بيني وبينك ؟

هل يؤذيك أن أثير المنافسة بين « الرسالة » والثقافة ، وأنت تعرف أن المنافسة من أقوى الأسباب في إذكاء العزائم والعقول ؟ وهل تنسى أن المنافسة بين هاتين المجلتين واقعة بالفعل وأن زملاءك في مجلة الثقافة يحسبون لها ألف حساب ، ويتقون نارها بالصبر الجميل ؟ وهل تنكر فضل هذه المنافسة عليك وقد أخرجتك من وقارك فقلت ما قلت في صديق لم يكن يسرّك أن يثور بينك وبينه خلاف ؟

ثم تنكر عليّ أن أوجه نصيحة إلى كتّاب « الثقافة » مع أنكم استفتيتم قراءكم سنة كاملة ليدلوكم على سنن الصواب في الترجمة والإنشاء !

وشاء لك الذوق أن تدعوني إلى الحرص على جمال الأسلوب فكانت هذه الدعوة دليل الوهم بأنك صرت كاتباً له أسلوب ؛ والوهم يصنع بأصحابه ما يشاء

وتلطفت فقلت : « لفت نظري أحد الأصدقاء إلى أن الدكتور زكي مبارك ذكر اسمي في شجون حديثه » فهل يكون معنى ذلك أنك لا تقرأ بنفسك ، وإنما ترفع الأخبار إليك في جُذاذات ، كما تُرفع إلى بعض المقامات ؟ تواضع قليلاً ، يا أستاذ فريد ، ليفتح الله عليك !

وتقول إني لقيتك عفواً فحمّلتني تحية أهل السودان إلى الأستاذ الزيات ، وأقول إني لقيتك عمداً لا عفواً لأهنئك بسلامة العودة ، ولأقبس بعض ما طبعت تلك الزيارة على وجهك من نور وصفاء !

أما بعد فأنا غير نادم على التحية التي وجهتها إليك ، لأني لم أكن أنتظر منك أي جزاء ، ولأني أرجو أن أتحفك بمثلها في مناسبة ثانية ، إن أراد الله أن يجعلك أهلاً لكرائم التحيات ، ولعله يريد !

زكي مبارك

(1) يجوز جمع مشهور على مشاهير ، ولو كره بعض المتحذلقين !

دمشق ...

للأستاذ على الطنطاوى

« دمشق ! » ... وهل توصف دمشق ؟ هل تصور الجنة لمن لم يرها ؟ من يصفها وهى دنيا من أحلام الحب وأمجاد البطولة وروائع الخلود ؟ من يكتب عنها (وهى من جنات الخلد الباقية) بقلم من أقلام الأرض فانٍ ؟

دمشق : التى يحضنها الجبل الأشم الرابض بين الصخر والشجر ، المترفع عن الأرض ترفع البطولة العبقرية، الخاضع أمام السماء خضوع الإيمان الصادق ... دمشق التى تعانقها الغوطة ، الأم الرؤوم الساهرة أبداً ، تصغى إلى مناجاة السواقى الهائمة فى مرابع الفتنة ؛ وقهقهة الجداول المنتشية من رحيق بردى ، الراكضة دائماً نحو مطلع الشمس ، تخوض الليل إليها لتسبقها فى طلوعها ؛ وهمس الزيتون الشيخ الذى شيبته أحداث الدهر فطفق يفكر فيما رأى فى حياته الطويلة وما سمع ، ويتلو على نفسه آيات حكمته ؛ وأغانى الحور الطروب الذى ألهاه عبث الشباب ولهو الفتوة عن التأمل والتبصر ، فقضى العمر ساحباً ذيل المجون مائساً عجبا وتيها ، خاطراً على أكتاف السواقى وعلى جنبات المسارب يغازل النيد الحسان من نبات الشمس والزمان ، ويميل عليها ليقطف فى الربيع وردة من خدها ، أو ثمرة من قلائد نحرها ، ثم يرتد عنها يخاف أن تلمحه عيون الجوز الشواخص ، والجوز ملك الغوطة جالس هناك بجلاله وكبريائه ، ولا جلال ملك تحت تاجه ، وعاهل فوق عرشه

دمشق : التى تحرسها (الربوة) ذات (الشاذروان) ، وهى خاشعة فى محرابها الصخرى تسبح الله وتحمده على أن أعطاها نصف الجمال حين قسم فى بقاع الأرض كلها النصف الثانى ... وما الربوة إلا حلم ممتع غامض يغمر قلب رائيه بأجل العواطف التى عرفها قلب بشرى فيذكّر كل إنسان بليالى حبه وساعات سعادته ، ثم يتصرم الحلم ويستحيل إلى ذكرى حلوة لا تمحوها الأحداث ولا تطغى عليها سيول الذكريات ... الربوة : لحن من ألحان السماء ألقته مرة واحدة فى أذن الأرض ... الربوة هى الربوة لمن يعرفها وكفى !

* * *

دمشق من أقدم مدن الأرض وأكبرها سناً وأرسخها فى الحضارة قدماً . كانت مدينة عامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وباريس ولندن ، وقبل أن تنشأ الأهرام وينحت من الصخر وجه أبى الهول ، وبقيت مدينة عامرة بعد ما مات أترابها واندثرت منهن الآثار ، وفيها تراكم تراث الأعصار ، وإلى أهلها اليوم انتقلت مزايا كل من سكنها فى سالف الدهر ، ففى نفوسهم من السجايا مثل ما فى أرضها من آثار التمدن وبقايا الماضى طبقات بعضها فوق بعض ... فالحضارة تجرى فى عروقهم مع الدماء ، وهم ورثتها وحاملو رايتها ، وهى فيهم طبع وسجية ؛ ولقد تكون فى غيرهم تطبعاً وتكلفاً ، فأى مدينة جمع الله لها من جمال الفتوة وجلال الشيخوخة كالذى جمع لدمشق ؟

وأصعد جبل دمشق حتى تبلغ قبة النصر (التى بناها برقوق سنة ٨٧٧ للهجرة ذكرى انتصاره على سوار بك)[1] . ثم انظر وخبرنى هل تعرف مدينة يجتمع منها فى منظر واحد مثل ما يجتمع من دمشق للواقف عند قبة النصر ؟ أنظر تر البلد كله ما يغيب عنك منه شىء : ها هنا قلب المدينة وفيه الجامع الذى لا نظير له على وجه الأرض — لا أستثنى ولا أبالغ — وقبة النسر تعلو هامته كتاج الملك ، لا بل كعمامة الشيخ ، وها هى ذى مناراتها التى تعد مائة وسبعين منارة ، منها عشرون من أعظم منارات العالم الإسلامى ، قد افتن بناتها فى هندستها ونقشها ، فاختلفت منها الأشكال واتفقت فى العظمة والجلال ، لا كمآذن بغداد التى لا يختلف شىء منها عن شىء ، فإذا أبصرت منها واحدة ، فكأنما أبصرتها جميعاً ... يحف بذلك كله الغوطة الواسعة التى تبدو للناظر كأنها بحر من الخضرة قد نثرت فيها القرى التى تنيف على الأربعين عدا ، أكبرها (دوما) ذات الكروم ، (وداريا) التى تفاخر بعنبها كل أرض فيها عنب ، (وحرستا) بلد الزيتون ومنبت الإمام محمد صاحب أبى حنيفة ، (وجرمانا) وهى حديقة

(١) وهذا جواب الذى سأل عن تاريخ هذه القبة فى عدد مضى من « الرسالة » ، أما القبة الثانية ، فقد بناها الأمير سيار الشجاعى وسميت باسمه

ورد ، وكفر سوسية ، وكفر بطنا ، والأشرفية ، وصحنايا ، والمآذن وهي مائلة خلال الأشجار ، ووراء الغوطة سهول المزة عن اليمين ، وسهول القابون عن الشمال ، وبطاح من الأمام ، وسهول تمتد إلى الأفق ، حيث تغيب الجبال البعيدة في ضباب الصباح ، ووهج الظهيرة ، وصفرة الطفَل ، وسواد الليل ...

إنك تشمل هذا كله بنظرة منك واحدة وأنت قائم مكانك ، فأين يا صديق القارئ ترى مثل هذا ؟

* * *

وبردى ؟ لما قدم شاعر العرب عاصمة العرب ومر على بردى وهو يمشي بين قصر أمية ودار البلدية مشية العاجز الهرم ، قال له صاحبه مستقلاً بردى مستخفاً به : أهذا الذي ملأت الدنيا مدحاً له ؟ يظن صاحب شوقي أن النهر بكثرة مائه وبعد ضفتيه . ما درى أن بردى هو الذي يجرى في الوادي زاخراً متوثباً نشيطاً لا الذي يجرى في (المرجة) متهافتاً كليلاً ، وأنه هو الذي أطعم دمشق الخبز ، وهو الذي زرع بساتين الغوطة ، وهو الذي أنار دمشق بالكهرباء وسيّر فيها وفي غوطتها (الترام) ، وهو الذي لا تضيع قطرة منه واحدة على حين تمر دجلة على بغداد مر الكرام ، تقرأ عليها السلام ... ثم تحمل خيرها كله لتلقيه في البحر ، لا تمنح بغداد منه إلا ما تأخذه بالمضخات والنواعير التي لا تسير إلا بمال . فمن رأى مثل بردى (في بره بأرضه وكثرة خيراته) نهراً ؟ من ذاق أطيب من مائه ؟ من أبصر أجمل من واديه ؟ ...

* * *

لقد علم بردى أبناءه الولع بالخضرة والظلال ، وحبب إليهم أفانين الجمال ، فصارت النزهة (السيران) من مقومات الحياة في دمشق لا تحيا أسرة إلا بها ، ولا تستغنى عنها ، فهي لهم كالغذاء ، فهل يستغنى عن الغذاء ؟ هل يمكن أن يجيء يوم صائف من أيام الشتاء فتبقى دمشقية أو يبقى دمشقي في بيته لا يؤم (المهاجرين) ، حيث يجتمع على الشماف والصخور وفي ظلال الآس الرجال والنساء على طهر وعفاف ، وتدور أكواب الشاي (الأخضر) خمر المسلمين ، وتنطلق بالغناء الساحر أوتار الحناجر وتجرى خيول السبق في ساحة الجريد ؟ ثم إذا جاء وقت الصلاة قاموا إليها فلا ترى إلا جماعات وأئمة ، ثم ينفض اجتماعهم عن طرب وفروسة وعبادة ، وتلك هي المثل العليا لأهل الشام

وهل تمر أمسية من أمسيات الصيف على دمشق قاعد في دكانه أو قابع في بيته ؟ تعال انظر جماعاتهم في قهوات (شارع بغداد) وفي كل قهوة مؤذنها (إي والله) وإمامها . وعلى ضفاف بردى عند (صدر الباز) وفي (الميزان) أجمل موضع في دمشق ، وأمامهم سماورات الشاي الصُّفر الرشيقة ، وفي كل حلقة مغنيها ، وليس مثل الشاميين في الولع بالغناء ، فلا ينفرد الرجل بنفسه إلا غنى لها ؛ فالفلاح وهو نازل من قريته مع الفجر يغني ، والحوذى وهو يسوق عربته إلى (جسر تورا) أو إلى (كيوان) يغني ، وأجير الخباز وهو يحمل المعجن على رأسه يغني ، ونداء الباعة كله غناء وشعر ...

قف ساعة على ظهر الطريق واسمع ما ينادي به الباعة تر عجباً لا شبيه له في البلاد ؛ قصائد من الشعر غير أنها مرسلة القوافي ، وطرائف من الغناء غير أنها محلولة القيود ، تمشي إلى القلوب طليقة حرة لا تسمى شيئاً باسمه ؛ وإنما هي مجازات وكنايات ، عجب منها بعض من كتب عن دمشق من سياح الإفرنج فتساءل في كتاب له عما نظم للباعة هذه الأشعار الرقاق !

وتعال استمع هذا البائع وهو يتغنى بصوت يقطر عذوبة وحناناً (ياغزل البنات ، ياما غزلوك في الليالي ، ياغزل البنات) ويضغط على (الليالي) وعلى (البنات) ، هل يستطيع قارئ أن يحرز ماذا يبيع هذا المنادي ؟ لا لن أقول فتعالوا إلى دمشق لتأكلوا غزل البنات ... وهذا بائع يهتف بكلمة واحدة لا يزيد عليها (الله الدايم) هل يقع في حسابك أنه يبيع (الخس) ، وأن (يامهون يا كريم) نداء بائع (الكعك) عند الصباح ، وأن من الباعة من ينادي بالحكم الغوالي كهذا الذي ينادي : (ويل لك يا ابن الزنا يا خاين) فيفهم الناس أنه بائع (الترخون)

أولا يشجيك ويثير سواكن أشجانك بائع العنب حين تدنو أواخره فينادي بصوت حزين (هدوا خيامك وراحت أيامك . مابقي في الكرم غير الحطب ياعنب ، ودع والوداع لسنة ياعنب) ألا تحس كأنه يودع حبيباً له عزيزاً عليه ؟ وبائع العسل (أي الشمندر) وقد أوقد ناره في الصباح البارد ، ووضع (حَلَته)

وسقف رؤوس الشمندار الأحمر(١) ونادى في أيام الشتاء (بردان! تعال صوبي بردان ... أنا بياع العسل) ألا يحبب إليك أكل العسل؛ واسمع العجائب في نداء بائع الملفوف (اليخنا): (يخنا والطبخ، والجارية بتنفخ، والعبدعَ الباب، بِقلّع الكلاب) وبائع الحمص المسلوق (البليلة): (بليلة بلبلوك، وسبع جوار خدموك، يا بليلة)، وبائع الزعرور: (أبيض أحمر يا زعبوب؛ تمر محنى يا زعبوب، البزر بن يا زعبوب)؛ واستمع إلى الشعر والخيال في نداء بائع الجرادق (ياما رماك الهوا، وقلبي انكوى، يا ناعم). وبائع التين (دابل وعلى دبالك يا عيون الحبيب، ومن دباله يمشي لحاله)؛ وبائع الباذنجان (أسود ومن سواده هرب الناطور) ألا تعجبك صورة الناطور وقد هرب من سواد الباذنجان؟

وهذا كله كان من ولع الشاميين بالغناء وإقبالهم عليه حتى انعقد إجماع فقهاء الذوق فيهم على أنه لا يصح اجتماع أو سمر إلا بالغناء؛ وإذا سها عنه ساه، فكفارته إطعام عشرة أصدقاء صدر كنافة شامية، أو صدر (كل واشكر) أو غير ذلك من الحلويات التي لا يخالف أحد في أن دمشق أبرع مدينة في صنعها. وأسألوا محل (أسدية) في القاهرة، ومطعم الفردوس في بغداد، واذكروني بالخير، فإن الدال على الخير كفاعله

والدمشقيون أكرم الناس، وأشدهم عطفاً على الغريب، وحباً له، فهم يؤثرونه على الأهل والولد؛ ومدينتهم من أنظف المدن لتدفق مائها، وكثرة أنهارها، ووصولها إلى الأحياء كلها ودخولها البرك في الدور، حتى لا يخلو حيٌ من نهر. فنهر (يزيد(٢)) يسقي الصالحية، و (تورا) يسقي العقيبة وسوق صاروجا(٣)، و (بانياس) يسقي القيمرية، و (قنوات) يسقي حيّ القنوات، وقد أخذت مياه عين الفيجة (وهي من أصفى العيون وأعذبها تنبع من جبل على عشرين كيلاً من دمشق) فسيّرت مياهها في بطون الجبال حتى أبلغت دمشق فأدخلت

(١) ومما رأيت في العراق أنهم يأكلون الشمندر: اللفت المسلوق ويدعونه الشلغم

(٢) نسبه إلى يزيد بن معاوية

(٣) نسبه إلى صاروجا من أمراء المماليك

دورها، فشرب منها الناس أعذب ماء وأبرده. والشاميون مولعون بالنظافة والطهارة، حتى أنه ليعدّ من أكبر عيوب المرأة ألا تغسل أرض دارها كل يوم مرة أو مرتين بالماء غسلاً وتمسح جدرانه وزجاجه، على رحب الدور الشامية، واتساع صحونها، وكثرة مرمرها ورخامها. وادخل المساجد تر بلاطها يلمع كالمرايا، ويحبب الصلاة إلى من ليس من أهلها. وعرج على المطاعم تبصر الأطعمة مصفوفة أمامك في القدور الصغار النظاف بأناقة تجيع الشبعان، ونظافة تطمئن إليها نفس الموَسوِس(١). أما ألوان الطعام في الشام فلا يضاهيها شيء في غيرها، وما أكل الغريب في دمشق حلواً ولا حامضاً ولا حاراً ولا بارداً إلا استطابه وفضله على طعام بلده، وما استطاب الشامي في غير بلده طعاماً قط. ومن خير مطاعم مصر والعراق، وأجودها طعاماً وأحسنها نظاماً، ما كان صاحبه شامياً أو كان على مذهب أهل الشام. ثم إن خدم المطاعم والقائمين عليها طيّبون أذكياء، وهم يدركون باللمحة السريعة، ويفهمون بالإشارة الخفية.

ودمشق أرخص بلاد الله وفيها النعيم المقيم ولا تخلو من ثمر قط لا في الصيف ولا في الشتاء. أما جودة ثمارها فأشهر من أن تذكر؛ وفيها من العنب ما يزيد على خمسين نوعاً، ومن المشمش تسعة أنواع، ومن التين قريب من ذلك، ومن الدراق والكمثرى والتوت الشامي والجوز واللوز ما لا يوجد مثله في غيرها

والدمشقيون أهل براعة في الصناعة وعندهم من المعامل الكبيرة معمل للاسمنت عظيم (في دمّر ظاهر دمشق) ومعمل للأثمار (الكونسروه) لا نظير لما يصنعه. ومعمل للدباغة كبير، ومعمل للجوخ، ومعامل كثيرة لا تحصى للمنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والجوارب (والكرافات)، ومعمل للزجاج، ومعامل صنعت أكثر أنواع الأدوية وحكم الأطباء بجودة ما تصنعه، ومعامل لأنواع السكاكر والمربيات (والشوكولاته). وفي دمشق مدرستان للعلم الديني فيهما

(١) بصيغة الفاعل — كذا يضبطها الفقهاء — أي يوسوس لنفسه

أكثر من خمسمائة طالب متمم فضلاً عن الصغار ، ومدرسة للطب تدرس العلوم كلها بالعربية ؛ ولأساتذتها فضل كبير على ما وضع من المصطلحات العلمية في لغة العرب . وفيها مدرسة للحقوق العربية . وفيها أنشئ أول مجمع علمي عربي صحيح .

وفي الشام كثير من الآثار الباقية من القرون الخالية : كالقلعة والسور ، والمدارس ، والمارستانات ، والمساجد القديمة ، والربط والخانات ، ولكل من ذلك حديث طويل وتاريخ حافل ، ولكن الأدلاء الجاهلين لا يعرفونها ولا يدلون السياح عليها . وفيها مدافن كثيرين من أعلام الإسلام في السياسة والعلم والأدب والتصوف . وفي مكتبتها الظاهرية نوادر المخطوطات ، حتى أنها لتعد أغنى الخزائن الإسلامية بكتب الحديث . وفي المكتبات الخاصة مخطوطات فريدة . ودمشق ذاخرة بالعلماء في كل فن وعلم

وليس للعروبة مثل دمشق موئلاً وملاذاً ، وليس في المسلمين مثل أهلها تمسكاً بالدين وإقامة لشعائره ، فمساجدها ممتلئة أبداً ؛ فيها كل شاب متأنق تراه فتحسبه من شراب مياه التايمس أو السين ، وهو مسلم حقاً ، مؤمن صدقاً ، ناشئ في طاعة الله ؛ ومساجد بلاد العرب إن امتلأت فبالشيوخ والشيب !

والمنكرات في دمشق مقموعة وأهلها الأذلاء . وللعلماء العقلاء المخلصين منزلة عند أهل دمشق ليس لأحد من أبناء الدنيا مثلها . والسفور في نساء الشام قليل نادر ، والاحتشام والستر عام شامل . وأهل الشام كالماء لهم في الرضا رقته وسيلانه ، وفي الغضب شدته وطغيانه ، بل ربما كان لهم من البركان فورانه وثورانه

***

وبعد فأي مزاياك يا دمشق أذكر ، وإلى أي معاهدك أشتاق ، وأيها أحن إلى حسنه وأهيم بجماله ، وفيك الدين وأنت الدنيا ، وعندك الجمال وعندك الجلال ، وأنت ديار المجد وأنت ديار الوجد ، جمعت عظمة الماضي وروعة الحاضر ، وسيكون لك المستقبل ... المستقبل لك يا دمشق ، عشت وعاش بنوك والسلام عليك ممن غربته عنك وأنكرته ، وأشقيته بالوفاء حين أسعدت بالغدر الغادرين

علي الطنطاوي

من دموع عذراء

العبير النائح

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

إِنِّى أَرَاكِ كَزَهْرَةٍ فى الغَابِ نَائِحَةِ العَبِيرْ
مَذْعُورَةِ الأَكَامِ بَيْـ ـنَ خُطَا السَّمائِمِ والهجِيرْ
عَذراء يَتَّمَهَا الخَرِيـ ـفُ فلا ظِلالَ ولا غَدِيرْ
سَكَنَتْ كَطَيْفٍ مُعَذَّبٍ وَهَفَتْ كَآهَةِ مُسْتَجِيرْ
وَدَنَا الظَّلامُ فَلَفَّهَا فى ثَوْبِ مَحْزُونٍ كَسِيرْ
فَكَأَنَّهَا فى لَيْلِهِ سِرٌّ يُغَلِّفُهُ الضَّمِيرْ
وَكَأَنَّهَا فى فَجْرِهِ حُلُمٌ يَطِيرُ وَلا يَطِيرْ ...

يَا لَيْتَنِى كُنْتُ الظِّلالْ
أَوْ كُنْتُ يَنْبُوعَ التِّلالْ
لَسَكَبْتُ عُمْرِىَ فى الرِّمَالْ
رُوحًا يُرَفْرِفُ كَالخَيَالْ

يَسْقِيكِ مِنْ شَفَةِ الرَّبِيـ ـعِ رَحِيقَ فِتْنَتِكِ النَّضِيرْ
وَيُحِيلُ مَهْدَكِ جَنَّةً لِلْحُبِّ وَالْهَةَ الأَثِيرْ
أنا فى رُبَاهَا نَسْمَةٌ بِسِوَى ضِفَافِكِ لا تَسِيرْ !
أنا فى ثَرَاهَا جَدْوَلٌ لِصِبَاكِ رَقْرَاقٌ نَمِيرْ !
أنا فى شَذَاهَا نَفْحَةٌ عِطْرُ الخُلودِ بها أَسِيرْ !
أنا فى سَمَاها كَوْكَبٌ فى بُرْجِهِ بكِ يَسْتَنِيرْ !
أنا فى هَوَاهَا قُبْلَةٌ حَرَّى مُخَلَّدَةُ السَّعِيرْ
سَتَظَلُّ في شَفَتَيْكِ لا تَرْوَى إلى اليَوْمِ الأَخِيرْ

محمود حسن إسماعيل

من حديث الثغر الحزين

للأستاذ عماد الدين عبد الحميد

في مثل هذه الأيام من كل صيف مضى ، كان الناس — أو قل كان من الناس من تسمح لهم مقدرتهم وأوقاتهم بقضاء أشهر أو أسابيع أو أيام مع عروس البحر الأبيض كما يدعونها — يرون الإسكندرية ، وقد بدت عروساً سعيدة في أكمل زينة وأبهى منظر

كان هؤلاء يلجأون إليها ، هاربين من حرارة الصيف لا يطيقونها ، يرجون عندها معاني الراحة والاطمئنان ، وينشدون فيها الهناءة والسعادة . فتتلقاهم الإسكندرية مرحبة بهم ، مكرمة لهم ، باذلة كل جهد لتكون عند حسن ظنهم بها ، غير مترددة في أن تظهر أمامهم — أو بهم — في صورة من الحرية المرحة أو السرور المطلق ، نازعة عنها قيود التقاليد الموروثة ، متحملة كثيراً من أنواع النقد اللاذع ، يتقاذفها خضم هائج لا كموجها الهادىء ... حين تسرف في إكرامهم ، ولكن في ألوان المتعة الساخرة الساحرة !

كانوا يلجأون إليها في مثل هذه الأيام من كل صيف ، يقاسمونها ما وهبها الله من نعمة الطبيعة ، ويشاركونها فيما منحتها الطبيعة من سحر ، ولا أنكر أنهم كانوا يعطونها شيئاً مما أعطتهم الأيام ، ولكنهم كانوا أخيراً يتركونها إلى حيث يعودون جميعاً ، وقد بقيت وحدها حتى الصيف التالي رمزاً للعبث كما يراها بعض من الناس ، أو صورة لأمنية سعيدة في خيال بعض آخر لم تحقق له الأيام رجاءه من القدرة على أن يكون من روادها السعداء

يعودون ، لتستقبل جماعة منهم العمل ، ولتستقبل جماعة أخرى أنواعاً جديدة من لذة الشتاء ، وتبقى أذهان هؤلاء وأولئك ثملة برحلة الصيف ، سكرى بذكرياتها ، تستمد من تلك الذكريات الجميلة عوناً على قضاء الأيام حتى تستقبلهم الأسكندرية مرة أخرى ، طروباً ساخرة

***

إشهدوا الأسكندرية كرقصة مرحة صاخبة يأخذ كل قادر منها بنصيب ، ثم لا يهدأ إلا ليأخذ منها بنصيب جديد ... واسمعوها كأغنية عذبة طويلة من مطرب موهوب محبوب ، لا تكاد تنتهي حتى يرجو السامعون لو أعيدت من جديد ... وحتى بعد أن قضى على أنوارها الباهرة بأن تلبث ثوباً من الزرقة القاتمة منذ سنين . إسمعوها في الليل كقطعة موسيقية صامتة تلمسها أنامل عازف ماهر على أوتار القلوب !

إشهدوها واسمعوها كذلك ، ثم انظروها وقد لبست في هذا الصيف ثوب الحداد على شهداء أعزاء ... واسمعوها ، اسمعوا منها تلك الأغنية العذبة ، وقد تبدلت فجأة ، فإذا هي عويل وبكاء ... وأنصتوا لموسيقاها الصاخبة ، وقد أضحت لحناً حزيناً خافتاً بين الأطلال ...

إسألوا هؤلاء الذين كانوا بالأمس يسمون إليها هرباً من حرارة الجو ... ماذا قدموا لها اليوم حين سعت إليهم هرباً من جحيم الشيطان !

إسألوا هؤلاء ماذا قدموا من خير — وهم قادرون — للأمهات الحزينات فقدن العائل وفقدن الأبناء !

إسألوهم ماذا قدموا من عون لليتامى ، وقد هاموا على وجوههم حائرين ، ضلوا سبيل الحياة !

إسألوهم ماذا قدموا من مالهم لمن صار محروماً !

إسألوهم ماذا قدموا من مقدرتهم لمن أصبح عاجزاً !

إسألوهم ماذا قدموا من قوتهم وصحتهم لمن صار ضعيفاً عليلاً !

إسألوهم ماذا قدموا من خبزهم للجياع ، وماذا قدموا من كسائهم للعرايا ... وماذا قدموا من دورهم للمشردين !

بل سلوهم ماذا قدموا من كلمة مواساة لهؤلاء ، علها أن تخفف شيئاً من وقع المصاب !

ترى هل يجيبون ... ؟ يقيناً أنهم لا يجدون الجواب !

فكم منهم ذكر الأسكندرية في محنتها بشيء ؟ وبأي شيء ذكرها هذا البعض القليل الذي ذكر ... ؟!

***

أيتها الدنيا : إنك لغادرة خادعة !

الله ! . . .

DIEU

لشاعر الحب والجمال لامرتين

بقلم الأستاذ محمد أسعد ولاية

[لما وجه لامرتين هذه الأبيات إلى « لامنيه » كان يومذاك على اتصال به منذ أمد قريب حيث استهواه الباب الأول من بحث دينى فى « النكران » عام (١٨١٧) ، فأنشأها خلال رحلة قام بها على جواد بين باريس وديجون فى الأيام الأولى من مايو عام (١٨١٩) . وهذه القصيدة التى ترتبط بنوع تعليمى تكاد تشتمل على أروع أبيات تحدد وتصف القدرة الالهية ، ويندر أن يستند الشعر الفلسفى إلى إلهام متقد إلى هذا الحد]

(الى الراهب ف . د . لامنيه)

نعم ، إن روحى لتبتهج بالتحلل من قيودها :

طارحة عِبْء البؤس البشرى ،

تاركةً حواسى تهيم فى هذا العالم ، عالم الأشباح ،

حيث أصعد إلى عالم الأرواح بدون عناء .

هنالك أطأ تحت أقدامى هذا العالم المنظور ،

وأرتع حراً فى ساحات الخفاء .

إنّ روحى لتضيق فى سجنها الرحب ،

إننى فى حاجة إلى مقر لا أُفُقَ له

* * *

كقطرة ماء صُبَّتْ فى المحيط ،

يستغرق الخلدُ فى كنفه تفكيرى ،

هنالك ملكة الفضاء والخلود

وهى تجرؤ على استكناه الزمن والعالم اللانهائى

تقترب من العدم ، وتطوف فى الوجود

وتعرف من الله الجوهر الغامض .

بيد أننى حينما أريد تصوير ما أشعر به

تتلاشى جميع العبارات كجهودات فاشلة ،

تعتقد روحى أنها تتحدث ولسانى متلعثم ،

يصفع الهواء عشرين صفعة خيال تفكيرى .

لقد خلق الله للأرواح لغتين مختلفتين :

فى نبرتين تاريخيتين تتبخر إحداهما فى الهواء ،

وهذه اللغة المحدودة معروفة للناس

وهى تفى باحتياجات المنفى الذى نحن فيه

وتتكيف طبقاً للضربات القاتلة من تقلبات القدر ،

فتتبدل مع الأجواء أو تذهب مع الزمن .

أما اللغة الخالدة الأخرى النبيلة الجامعة اللانهائية ؟

فهى اللغة الموهوبة بجماع الذكاء :

ولم تكن قط نبرة مائتة تذهب هباء مع الهواء

فليست هـذه مقدرتهم التى عرفناها فى ميادين اللهو واللذة والمتعة الفاجرة . . . وليست هـذه وجاهتهم التى عرفناها فى قصورهم وحيث يحلّون !

وأنت أيتها الإسكندرية : إنهم لم يحبوك فى يوم من الأيام . . . ولكنهم أحبوا لذتهم ولهوهم ، وأحبوا عندك الظهور والكبرياء !

إنهم لم يعطوك ، حين كانوا يعطونك كل صيف مما وهبتهم الأيام، لرغبتهم فى أن ينالك شىء من خيرهم ، ولـكنهم لو استطاعوا لأخذوا كل ما لديك لأنفسهم . واذهبى أنت مع الريح !

أيتها الإسكندرية ، إغضبى من اليوم عليهم . إغضبى غضبة لا تعرف الهوادة ولا تعرف اللين ، فليسوا جديرين بعطف منك ولا وفاء ! ولتغضب مصر جميعاً لغضبة الاسكندرية ، لتغضب . . . فإنا نحب الخير ونحترم مثله ، ولسنا عبيد الألقاب ، ولسنا قطيعاً فى مزرعة الوجهاء .

إن للفقراء حقاً مشروعاً فى رقاب الأغنياء . طلبوه اليوم منهم فأنكره هؤلاء . . . فليذهب كل ما كان لهم فى نفوسنا من حب ، وليذهب كل ما كان لهم فيها من تقدير . . .

ولتبق نكبة الاسكندرية ماثلة فى أذهاننا دائماً ، لتذكرنا بأن للانسان حقوقاً طبيعية فى المجموع الذى يعيش فيه .

تتمثل هذه الحقوق — أول ما تتمثل — فى أننا يجب أن نسعى إلى حياة معتدلة ، فيها رخاء لنا جميعاً ، وتحصين لنا جميعاً . فلا تعيش طائفة جاحدة منا عيشة فائقة الثراء . . . وتحيا أخرى حياة الأغنام !

أيها العاجزون المحتاجون المنكوبون ، لا تفكروا طويلاً فى عطف القادرين . . . أيها الفقراء ، لا تثقوا كثيراً فى قلوب الأغنياء . . . فلا يعرف الألم إلا من قاساه فى يوم من الأيام . . .

(حلوان) عماد الدين عبد الحميد

إنها تعبير حى يُسمعُ فى القلب :
فهى تُسمعُ وتُشرحُ ويُتحدثُ بها مع النفس ،
وهذه اللغة الشعورية تخلب وتضىء وتلهب
وليس للنفس لكى تُعبِّر عن خطراتها الملتهبة
سوى تنفس الصعداء والحماس والوثوب .
هذه هى لغة السماء التى تنطق بها الصلاة ،
ولغة المحبة المفعمة بالحنان فى الحياة الدنيا

* * *

فى المناطق الطاهرة حيث أحب أن أطير ،
يمشى الحماس أيضاً على كشف أسرارها .
هو وحده سراجى فى هذه الليلة الظلماء ،
وهو الذى يفسر لى العالم أحسن مما يفسره العقل .
تعال إذن ! إنه دليلى ، وأريد أن أخدمك .
على أجنحتها النارية تعال واختطف !
ها هو ظل العالم قد امحى عن أعيننا .
إننا نهجر الزمن ونجول فى الفضاء :
وفى نظام الحقيقة الأبدى ، ها نحن أولاء وجهاً لوجه أمام الحقيقة !
وهذا الكوكب الفرد ، الذى لا زوال له ولا تغير ،
إنه الله ، هو رب كل شىء ، الذى يقدس نفسه !
كل شىء من فضله : الكون والزمن ،
ومن وجوده الخالد ، جميع العناصر الصافية .
اللانهاية مداه ، والأبدية عمره ،
النهار نظرته ، والعالم ظله .
جميع الوجود يبقى تحت ظل يده
فالكائنات الطافية على أمواج الأبدية التى تجرى من فيضه ،
كنهر يتغذى من هذا المنبع الذى لا ينضب له معين ،
يختفى فيه ويؤول إلى الفناء ، بينما كل شىء يبتدىء .
إن صنعه الكامل الذى لا حد له مثله ،
يمجد حين يوجد ، اليد التى صنعته :
يحشد الخلق فى الخلد بين زفرة وأخرى ،
فهو إذا شاء قال : كن فيكون .
كل شىء منه وإليه
إرادته المقدسة هى شريعته الإلهية

ولكن هذه الإرادة التى لا ظلَّ لها ولا خوَر ،
هى فى وقت واحد : القدرة والإرادة والعدل والحكمة .
كل ما عساه أن يكون يجرى وفق إرادته
وكذلك العدم ينهض بمقدار :
الذكاء والحب والقوة والجمال والشباب ،
هو قادر على منحها بلا انقطاع دون أن ينضب له معين .
وهو يغمر العدم بنعمه القيمة .
وأقرب علامات وجوده أنه يستطيع أن يخلق آلهة !
ولكن هؤلاء الآلهة من صنع يده ، والأبناء من قدرته ،
من شأنهم أن يبرهنوا على وجوده الخالد ،
وهم يميلون بطبعهم إلى الإقرار بوجود خالقهم .
إليه مرجعهم جميعاً وهو وحده الكافى !

* * *

هذا هو الله الذى تعبده جميع النفوس ،
والذى دان له (ابراهيم) ، واهتدت إليه بصيرة (فيثاغورس)[1]
وأشاد بذكره (سقراط) ، ولمس وجوده (أفلاطون) .
هذا الإله الذى أظهر الكون للعقل حقيقة ،
والذى تنتظره العدالة ، ويرجو لطفه الشقاء ،
والذى دعا إليه عيسى فوق الأرض !
ولم يعد من أثر للإله الذى تصنعه يد الإنسان ،
ذلك الإله الذى عبر عنه النفاق الخاطئ ،
ذلك الإله الذى شوهت حقيقته يد الكهنة الزائفين ،
والذى كان يعبده أسلافنا السذج وهم يرتعدون

* * *

إنه وحيد . إنه واحد ، إنه عادل ، إنه حميد
ترى الأرض صنعه ، وتعرف السماء اسمه !
سعيد من يعرفه ، وأسعد منه من يعبده !
هو الذى ، بينما الناس فى جحود أو إنكار ،
يظل وحده فى مصاف مصابيح الليل القانتة ،
ينهض فى المحراب حيث يجتذبه الإيمان ؛

(١) لم يعترف فيلسوف ما من الملحدين اعترافاً تاما بوحدانية الله ، بيد أن الفلسفة الروحانية على الاطلاق تبرهن منطقياً على تلك الوحدانية
أما التدرج الذى حاول « لامرتين » أن ينظمه هنا بين « فيثاغورس » و « سقراط » و « أفلاطون » ، فهو مجازى فى صميمه

ويلهج بالمحبة والشكران ،
ويحرق روحه كالبخور فى حضرته !
ولكن لكى تصعد إليه أنفسنا المحطمة
يجب أن تمنح أعلى قوتها وفضيلتها .
ينبغى أن نطير إلى السماء على أجنحة من اللهب ،
فالرغبة والحب هما جناح الروح

* * *

آه لِمَ لَمْ أولد فى مستهل الخليقة البشرية ؟
حين لم تكد تنتشر من بين يديه ،
قريباً من الله قرباً زمنياً ، وأكثر قرباً بالطهر ،
حيث تناجيه الخلائق ، وتسير فى حضرته !
لِمَ لَمْ أر العالمَ منذ بزوغ شمسه الأولى !
لقد كان كل شىء يحدثه عنك، وكنت أنت نفسك تناجيه ،
وقد كان الوجود يلهج بجلالك المقدس ،
وكانت الطبيعة الخارجة من أيدى الخالق ،
تنشر بكل المعانى اسم منشئها :
هذا الإسم الذى حجب منذ أجيال سحيقة ،
فإذا به يتلألأ فى روعة أكثر بريقاً فوق مبتدعاتك ؛
ولم يتطلع الإنسان فيما مضى إلا إليك ،
فكان يدعو ربه ، وكنت تقول : « أنا هو »

* * *

لقد تفضلت فتعهدت بمناجاتك تعليمه زمناً طويلاً كما يتعهد الطفل ،
وبعد زمن طويل اقتضت مشيئتك أن تهديه سواء السبيل
وقد تجلّت له عظمتك مرة ،
فى أودية سِنّار ،
فى حرج حُرَيْب بصحراء سينا ،
أو على قمة الجبل المقدس
حيث أملى موسى على العبريين شريعته الجليلة !
وهؤلاء أبناء يعقوب أول مواليد البشر ،
ظلوا يتلقون المن من يديك أربعين عاماً ،
وكنت توقظ نفوسهم بآياتك الحية ،
وكنت توحى أمام أعينهم بلغة المعجزات »

وعند ما نسوك ، تنزلت ملائكتك
وأعادت إلى قلوبهم الحائرة ذكراك .
ولكن أخيراً ، كنهر بعُد عن منبعه ،
ذهبت هذه الذكرى الصافية فى سبيلها ،
ومن هذا الكوكب القديم أخبا ليل الزمان المظلم
الناطقَ المضيئة تدريجياً .
لقد أمسكتَ عن المناجاة ، فالنسيان ويد الأجيال
غفلا عن هذا الاسم العظيم الذى تتسم به بدائعك ،
ولقد أضعف مرور الأجيال الإيمان ،
ووضع الإنسان الشك بين العالم وبينك .
نعم ، هذا العالم يا مولاى قد أصابه الهرم بالنسبة لعظمتك ،
لقد نسىَ اسمك وأثرك وذكراك
ولكى نستعيدها يجب علينا أن نمتطى من جديد نهر الأيام
موجة فوجة .
أيتها الطبيعة ، أيها الفلك ! عبثاً تراكما العين .
وا أسفا ! بدون أن يرى الإنسان الله يمجد المبدع ،
إنه يرى وعبثاً يتتبع آلاف الشموس ،
التى تجرى فى صحارى السموات جرياناً عجيباً ،
إنه لم يعد يعترف باليد التى تحركها .
معجزة أبدية لم تعد معجزة .
إنها تسطع فى الغد كما كانت تسطع بالأمس !
من يدرى أين تبتدئُ طريقها الجليل ؟
من يدرى إذا كان هذا السراج (الإيمان) الذى يتلألأ ويشع
قام للمرة الأولى فى العالم ؟
إن آباءنا لم يشهدوا قط سطوع دورته الأولى ،
والأيام الخالية لا يعرف لها أول قط .
عبثاً توحى عنايتك الإلهية
تجليك فى هذه التطورات العظيمة على العالم المنوى ،
إن من تدابيرك أن ينتقل صولجان الملك عبثاً
بين البشر من يد إلى أخرى ،
إن أعيننا التى ألفت تقلبها ،
قد جعلت من العظمة عادة فاترة ،
وكم شهدت الأجيال

للعلم والتاريخ

٢ ـ عبد القادر حمزة باشا

وما ذكره عنه الذاكرون في حفلة التأبين

[« قومية » ، بحثه وراء « الحقيقة » في التاريخ المصري القديم ..]

للأستاذ محمد السوادي

احتفل أهل الرأي وذوو المكانة وأبناء الفكر في عاصمة مصر بتأبين الفقيد من أيام ، فرددت جنبات القاعة الثقافية التذكارية في الجامعة الأمريكية مواهب الراحل ومناقبه ، جرت نثراً على ألسنة هيكل ومنصور فهمي وأباظة وآخرين ، وجرت شعراً على ألسنة العقاد ومطران ومحرم وآخرين

ومن الرابع عشر من هذا الشهر تحتفل أسرة الفقيد بإحياء ليلة الأربعين ، فيذكر الذاكرون أن أربعين يوماً مرت على آخر عهد لمصر بابنها « الممتاز » الذي وقف عليها ما أوتي من جهود ، وسخر في سبيلها ما أتاه الله من فضل وفن ومميزات رقت به إلى مستوى فريد ومقام ملحوظ

وأحب بدوري أن أختار هاتين اللامعتين — التأبين والأربعين — لأثير ناحية من أدب الفقيد تمشى وما ذكره الذاكرون من الشعراء والناثرين ، فقد ذكروا الخدمات التي أداها عبد القادر حمزة لمصر التي أحبها فعاش لها ، مصر الحديثة في جهاده السياسي والصحفي والأدبي ، ومصر القديمة التي بعثها بعثاً رائعاً في كتابه « على هامش التاريخ المصري القديم » . هذه الناحية التي أحب اليوم أن أغزوها أو أجلوها هي « قومية البحث عند عبد القادر حمزة وراء الحقيقة في التاريخ المصري القديم »

* * *

وأحب أيضاً أن أسجل أسفي على فقر مصر الحديثة من ناحية المؤسسات العلمية التي تفزع إليها الأمم الناهضة لقدر القيم العلمية لجهود الأفراد قدرها الحق ؛ ولو أن مصر كانت مثرية في هذه الناحية ثراء الأمريكيين والأوربيين ، لهبت هذه المؤسسات إثر وفاة العظيم تتناول مخلفاته بالبحث ولرأينا الجمعيات التاريخية تتوفر على الجانب التاريخي منها فتجلوه . المحاضرون من أعضاء المؤسسة بمحاضراتهم ، والباحثون بالكتب التي يصدرونها بسطاً لهذه الجهود وتأييداً أو تفنيداً ، أما وقصارى جهدنا أن يجتمع بعض الناهضين — واجتماعهم مشكور لهم ومحمود — لتأبين العظيم الراحل ، فقصور من ناحية النهضة

كثيراً من تقلبات القدر الكبرى !
لقد قدم الدور ، والإنسان الجامد في غفلة

* * *

أيقظنا أيها الإله العظيم ، أوح وبدل العالم ،
أسمع العدم كلمتك المثمرة
لقد آن الأوان ، فانهض وتجاوز هذا الهدوء الطويل
اخلق عالماً آخر من هذا الفضاء الآخر .
إن أعيننا الغافلة لتفتقر إلى مشاهد أخرى
وإن نفوسنا الشاردة لتحتاج إلى معجزات أخرى
بدل نظام السموات التي لم تعد تحدثنا !
واقذف بشمس أخرى لأعيننا الحائرة
حطم هذا القصر القديم غير الجدير بعظمتك ،
أقبل ، وتجل أنت ـ أنت سبحانك ـ واحملنا على أن نؤمن
ولكن ربما قبل الأوان حيث في صحارى السموات
ستكف الشمس عن إنارة الوجود
ومن هذه الشمس المعنوية (الايمان) قد انكسف الضوء .
وسيكف رويداً رويداً عن إنارة التفكير ،
واليوم الذي سيغدو فيه هذا المصباح محطما
سيغمس العالم في ليل أبدي !
إذن أنت ستحطم ما خلقت .
وهذا الحطام المنهار سيردد عنك جيلاً بعد جيل :
(إنني الوحيد ! وكل ما عداني لا يستطيع الدوام !
فالإنسان الذي ينقطع عن الايمان ، ينقطع عن البقاء !)

(الأسكندرية) محمد أسعد ولاية

العلمية خاصة والفكرية عامة يثير الأسف، ويبيح للناقد أن يلقى المسؤلية على الدولة ورجال الفكر أنفسهم

وهذه الناحية التي وقع عليها اختياري لتكون موضوع مقالي، هي الناحية التي كنت أود لو كانت من نصيب أساتذة النقد والتاريخ في إحدى المؤسسات العلمية، لأنها ناحية لها من الجلال والقيم ما ينوء به كاهلي وتنوء به جهودي

ولكني سأحاول:

و «القومية» في البحث، نقص من ناحية وكمال من ناحية: نقص من ناحية «الحقيقة» العلمية والتاريخية، لأنها - أي القومية - لون من ألوان التعصب يجافي أهداف الباحث وراء «الحقيقة» في ذاتها ولذاتها، وكمال من ناحية «الوطنية» التي تطالبنا بتغليب الصالح الوطني في الغاية، والشعور العاطفي في التحايل على إدراك هذه الغاية

وإذن «القومية» ليست لها قيمة ثابتة، وإنما تختلف قيمتها باختلاف وجهة النظر إليها

و «الحقيقة» نفسها لها ميزاتها ولها مساوئها، أما الميزات فتنحصر في القداسة التي تحوط الباحث، وفي الجمال الذي يحيط اللثام عنه يوم يدرك هذه «الحقيقة»، وفي الجلال الذي يشعر به يوم يرى نفسه وقد تجرد من كل تأثر شخصي أو عائلي أو قومي فأخذ مكانه فوق المستوى العادي وتطلعت الإنسانية المشوقة إلى الحقائق إلى حيث يقيم هذا الباحث داخل برجه العاجي.

وأما مساوىء هذه الحقيقة فتنحصر في مرارتها وأثر هذه المرارة في الجماعة التي ينتمي إليها الباحث، وضرر هذه المرارة بالوطن أو بالأفراد أو بالباحث نفسه. وحسبك أن تتصور نفسك الآن وقد جابهت أمتك حكومة وشعباً بالحقائق العارية فنشرت كتاباً ضمنته نقائصهم أفراداً وجماعة كما تعرفها أنت وكما أعرفها أنا، ثم تتصور نفسك وقد استاقك الجند إلى المحقق وزج بك المحقق في السجن، واستنكر تصرفك الرأي العام، واتهمك بالمروق من دين الوطنية كل وطني

من هذا ترى أن «القومية» نقص من بعض النواحي، و «الحقيقة» نفسها مريرة ولا أقول «نقص» من بعض النواحي، فإذا وجد الرجل الذي يجد في البحث وراء «الحقيقة» خالصة ليريح جلالها وليبرز جمالها وليساهم بهذا الجهد في الترقي الإنساني، ثم استطاع هـذا الرجل أن يخرج بنتيجة «نظيفة سليمة» من الناحية العلمية ومؤدية إلى خدمة بلاده، ثم تبين أن «القومية» هي التي دفعت به من البداية إلى هذا البحث الذي التزم فيه جادة الحق وصادق النهج، فمن حقه على بلاده أولاً وعلى الإنسانية ثانياً أن يأخذ مكانه بين الخالدين

وأنا مؤمن بأن عبد القادر حمزة كان «هذا الرجل» . . . في كتابه الأخير

ويحضرني الآن لإيضاح الفكرة مثل أضربه لها من «القومية» في «الفلسفة الوطنية الاشتراكية» في «ألمانيا النازية» فقد وضع «روزنبرج» وغيره من فلاسفة العنصرية الآرية مجلدات ضخمة سخروا فيها العلم لإثبات أن الجنس الآري سيد هذه الدنيا، وأعداد «الرسالة» الفائتة تتضمن بحوثاً طلية في فلسفة هذه «الوطنية الاشتراكية» وكلها توهم بأن أصحابها إنما يبحثون وراء «الحقيقة» فهل يمكن القول بأن هذه البحوث من النوع الذي نعنيه بـ «قومية البحث وراء الحقيقة»؟

كلا ... إنما حشد هؤلاء الفلاسفة «معلوماتهم» وجندوا «مواهبهم» لإخفاء وجه «الحقيقة» لا لاجتلائه، ولتسخير هـذه «المواهب والمعلومات» في إلباس الباطل ثوب الحق، وفي استخدام الحد الثاني من سلاح المنطق، وفي ارتداء أزياء الفلاسفة وهم في حقيقتهم دعاة سياسيون، ولتضليل «الفكر» بإقناع «المفكرين» بصواب ما تذهب إليه «العنصرية الآرية»

هؤلاء هم أعداء «الحقيقة» وأعداء المعنى الذي نعنيه ونحن نقصد إلى أصدقاء «الحقيقة» ونرمي إلى التدليل على أن «عبد القادر حمزه» المصري أحد هؤلاء الأصدقاء

***

نريد أن ندلل الآن على ثلاثة أمور:

أولها: أن عبد القادر حمزه إنما اتجه إلى دراسة «التاريخ المصري القديم» بحثاً وراء «الحقيقة» في ذاتها ولذاتها كما اتجه «أبناء هذه الحقيقة» في مختلف العصور

ثانيها : أن هذه الدراسة ملأته – كمصرى – زهوا بمصريته فكان هذا الشعور منه إيذاناً بالقومية التى حالفته فى بحثه

ثالثها : أن عبد القادر حمزة « مؤلف كتاب على هامش التاريخ المصرى القديم » قرن بين الحقيقة والقومية فجمع بينهما جمعاً عادلاً ولم يغلب القومية على الحقيقة وإنما وجد فى إبراز هذه الحقيقة إثباتاً لهذه القومية فعمل

هذه هى الأمور الثلاثة التى أريد أن أدلل على صحتها لأخرج منها بنتيجة تعزز موضوع هذا البحث

* * *

ولأعد بالقارئ إلى الكلمة التى قدم بها الفقيد للجزء الأول من كتابه لنستمع إليه وهو يقص علينا بداية شغفه بدراسة التاريخ المصرى القديم فنرى أنه زار الأقصر فى سنة ١٩٢٤ ليشاهد قبر الملك « توت عنخ أمون » فزار قبور وادى الملوك والملكات والدير البحرى ومعبد الكرنك ووقع فى يده كتاب « طيبه Thêbes » للأستاذ كابار Capart مدير معهد الآثار المصرية فى بروكسل فقرأه فخيل إليه أن الآثار التى مر بها مرور الطير أخذت تتجسم وأن الحياة أخذت تدب فيها فحفزه هذا إلى زيارة الأقصر مرة أخرى زيارة مشوق إلى الحقيقة وأصبح « يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار وعدت من هذه الزيارة وقد ازددت شغفاً بمصر القديمة فأحسست رغبة قوية فى زيارة المتحف المصرى ، مع أننى كنت قد زرته من قبل مرتين فجعلت أزوره من جديد زيارات كان لها فى نفسى معنى جديد »

هكذا كانت البداية ، بداية رجل شغفته آثار مصر القديمة حباً فرغب فى دراستها ، والبحث عن وجه « الحقيقة » فيها

فمتى إذن انتقل به البحث إلى « القومية » ، أو متى تسلطت على دراساته « قومية البحث » ؟

يجيبك هو على هذا السؤال فيقول :

« وتكررت زياراتى للآثار وانكببت على المؤلفات التى وصفها علماء المصرولوجيا ، فكنت كلما أوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر فى عينى وكأنى أمتلئ بذلك زهواً »

من هنا بدأت بذور القومية تنمو فى نفس الرجل ، ولكن هذا النمو فى « البذور » يحتاج إلى كثير من « الماء » و « السماد » ليستقيم العود ويبسق فارعاً فى الفضاء ... فما كان ماؤه وما كان سماده ؟ كان لا بد للرجل من « الغضب » ليكون « تعصب » ولتكون « حماسة » وليكون « إصرار » على إبراز فضائل مصر . . . وقد « غضب » الرجل الذى لا يغضب غضباً ظاهراً ، واستبنا منه هذا الغضب من خلال قوله :

« وأخذتنى الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر هذه لا نعرف عنها هذا الذى يعرفه الأجانب ، ولا نعجب بها هذا الإعجاب الذى يبذله لها الأجانب ، ولا نغرم بمجدها وتقصى خفاياه هذا الإغرام الذى يقبل عليه ويرتاح له الأجانب »

من العبارات السابقة ونحت القومية ؛ ولكن العبارة الأخيرة توضح حالة الاقتران بين « القومية » و « الحقيقة » أو مطالع هذا الاقتران ، لأنه لم يقل أنه عجب — أو غضب — فحسب ، ولكنه اعتزم البحث وراء هذا المجد و « تقصى خفاياه » والتقصى — علمياً — هو لباب البحث وراء « الحقيقة »

وبدأ الرجل يقرأ مختلف المؤلفات مرات ومرات ، فكان يفهم فى المرة الثانية ما يبهم عليه فى الأولى ، وينفذ فى الثالثة إلى ما يغيب عنه فى الثانية . وانقضت سنوات حتى اختمرت الدراسات فى ذهن هذا « الباحث المنطقى المرتب » ، وبدأت « النتائج » تطل من « المقدمات » على الصور التى انحاز بها ذهنه فى استخلاص الحقائق . . . هذه الصور التى رددتها إلى عناصرها فى بحث لى نشرته مجلة « الثقافة » الغراء

وبدأ الرجل تجربته الأولى بنشر فصول فى « البلاغ » فى سنة ١٩٣٤ ، وتجربته الثانية بنشر فصول أخرى فى سنة ١٩٣٨ وأخيراً رأى أن يخرج كتابه الأخير

وهو لم يقل أنه أدى لتاريخ مصر القديم كل حقه ، بل اعترف بأن هذا التاريخ بحر خضم ولم يسمه هذا الوصف إنشاء أو إسرافاً فى الإنشاء كما ألفنا نحن الكتاب ، بل عقب على الوصف بما يثبته فقال : « لأنه تاريخ أربعة آلاف سنة أو أكثر فليس يوفى حقه فى كتاب ولا فى كتب ، وقد كتب فيه العلماء الأجانب بعد كشف اللغة المصرية فى سنة ١٨٢٢ م مئات من

الكتب ، وهم إلى اليوم كلما كتب واحد منهم وجد جديداً ، وكلما ضربت فأسه فى أديم مصر خرجت بجديد ، فلا مناص من أن أكتفى فى كتابى هذا بأطراف ، وإذا أراد الله فسأتبع هذه الأطراف بأطراف وأطراف » . ولكن الله لم يرد ، فلا حول ولا قوة إلا بالله

وأدع الآن مهمة « التطبيق » إلى المقال الآتى إن شاء الله وأختم مقال اليوم بكلمة تثبت لك دافع الفقيد إلى الأخذ بالقومية فى البحث بعد أن دفعته الآثار إلى البحث عن الحقيقة فيها

لاحظ الفقيد حقائق مريرة حفزته إلى البحث وراء الحقيقة أولاً وحملته على أن يقرن بينها وبين القومية أخيراً ... ومن هذه الحقائق ما يأتى :

أولاً : لاحظ أن جميع المصريين يجهلون تاريخهم مع الأسف

ثانياً : أنهم لم يقرأوا منه وقت تحصيلهم العلم غير أشياء ضئيلة مبهمة

ثالثاً : أنهم لا يجدون بعد وقت التحصيل مؤلفات عربية فى هذا التاريخ تجذبهم إليه

رابعاً : أنهم يعرفون عن اليابان فى آسيا وكندا فى أمريكا وعن انجلترا أو عن فرنسا فى ماضيها وحاضرها أكثر مما يعرفونه عن مصر « وبهذا تنقطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ويمتنع علينا أن نأخذ من أمسنا ليومنا وغدنا. والإنسان الذى يعيش مقطوع الصلة بأمسه كالنبات الغريب ينمو ثم يموت ، وكأنه لم يوجد »

خامساً : إن الناشىء فى انجلترا أو فى فرنسا أو فى ألمانيا « ينشأ وتاريخ بلاده يسايره فى كل سنة من سنى تعليمه فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطبعت بطابع ما فى هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن وتتولد رغبة فى محاكاة أبطاله وينمو تبعاً لذلك الشعور بالقومية ... الخ »

سادساً : إن الكتاب اليونانيين والرومانيين الذين زاروا مصر وكتبوا عنها فى ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد شحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها فألبسوها لباس الغرابة والخرافة . مثلهم فى ذلك كمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدعون عليها دعاوى لا وجود لها ، وإن هذه الكتابات التى كتبها أمثال هيكاتى دى ميل وهيرودوت وسترابون وديودور الصقلى وكليان الاسكندرى وبلوتارك ، كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامبوليون الشاب

* * *

وضع الفقيد أمامه هذه الملحوظات الست وخرج منها بأن « الحقيقة » ضائعة فيجب إيجادها ، و « القومية » ضعيفة فيجب إنماؤها ، أما « الحقيقة » فهى أن مدنية مصر لم تقم كما اعتقد المؤرخون الأجانب « على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة » بل قامت كما دلل هو « على أساس علمى وخلقى صحيح » .

وإلى اللقاء حيث ندرس معاً « بالتطبيق » الطريق التى سلكها فى البحث والنتائج التى خرج بها و « النظافة » العلمية التى حالفته فى أثناء هذا البحث .

محمد السوادى

على شاطئ الحياة

شاعر غريب ...

للأستاذ طاهر محمد أبو فاشا

رَائِدُ الليل خلفَ وَهْم بعيدِ   وخيالٍ من الأمانى عنيدِ
وغريبٌ يرى الصباحَ غريباً   فى حياةٍ كليـــلهِ المعقودِ
وَلَوَلَ القيدُ فى يديه وصاحتْ   فى شرَايينهِ دِماء الشهيدِ
قلمٌ كان بسمةً فى فمِ الدُّ   نيا فماتت على فمِ الغِرِّيدِ
أقفرتْ روحُه ، وغاضتْ معانيـ   ـهِ وأمسى على الثرى فضلَ عُودِ
وبقايا حشاشةٍ تتـلوَّى   تحتَ حَرِّ الجوى وَبَرْدِ الوعودِ
جَفَّ حتى أنكرتُهُ وهو مِنِّى   شَبَحُ الأمِّ من خيالِ الوليدِ
جَفَّ حتى أنكرتُهُ وهو منى   صورةُ القُرب من فؤاد العميدِ
آهِ من آهةٍ بقلب شريدِ   ضلَّ فى ذلك المَتاهِ الشريدِ

نحن فى عالَمٍ حُماداه أنَّا   قد نسينا به معانى الوجودِ
أتكون القبورُ أضيقَ أم تِلْـ   ـكَ الفيافى لساهدٍ يَرْقُودِ ؟
وارتقابُ الجحيم أم ذلك الرُّعْـ   ـبُ بجرٍ مُسَمَّمٍ محدود ؟ !
وعواء الضِّباع بالليل أم جَرْ   سُ الأفاعى مُصَلْصِلاً من بعيد
وجماهير من عقاربَ زُغْنٍ   شائلاتٍ أذنابها كالبُنُودِ ؟ !
تَلسبُ الحيَّ والجمادَ كما اسْتَلْـ   ـهَمَ أعمى عصاه فوق الصَّعيدِ

كل يومٍ لنا فنونُ دفاعٍ   فى نزاعٍ على البقاء الكسيدِ
نتبارى مع الطبيعة والأو   هامِ والخوفِ والدجى والبيد
ظلماتٌ يَجْثُمْنَ خلفَ دَياجٍ   ورعودٌ يَجْأَرْنَ إثرَ رُعُودِ
أين حربُ الأعصاب من هذه الحر   بِ تلظَّتْ فى ليلها الموعود
أعُواء المدافِعِ الشُّـكْسِ أم زَأْ   رُغَضُوبٍ على الرُّبى شُخْدُودِ ؟
يوقظُ الليلَ كله ويكاد الْـ   ـفَجْرُ يَنْشَقُّ خِيفةً فى النُّجُودِ
وَسِمَامُ الغازات أم ذلك الصِّـ   ـلُّ بِقَرْنَيْهِ لابداً فى الخَرِيدِ

آهِ من آهةٍ بقلب شريدِ   ضلَّ فى ذلك المَتاهِ الشريد

من أباح الشذا وكان حراماً   وحشة الرَّوض أم بكاء الورودِ
والذى أسلمَ العنادلَ للذلَّ   هواها ... أم كبرياء النشيد
لهف نفسى على ورود القوافى   يذبل الوردُ فى القِفار ويودى
خطراتٌ يَلِدْنَ فى ذلك القَفْـ   ـرِ كماء فى الصَّخرةِ الصَّيْخُودِ

حرَّ قلبى عليك يا مصر يا مَهْـ   ـبِطَ وَحْيِى ويا مَرادَ قصيدى
يا ليالىَّ (بالحُسَينِ) أعيدى   بسمة الدهر واخطرى من جديد
قد بكى الناىُ فى يد العازف النَّا   ئى ، وَأَنَّتْ أوتاره من بعيد
نحن فى شاطئ الحياة حيارى   قد أقمنا على ضِفافِ الوجودِ !

عنيبة « الدر »   طاهر محمد أبو فاشا

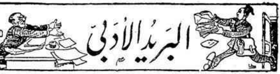
حينما تغمضين عينيك

للأستـــاذ العوضى الوكيل

حينما تغمضين عينيك هاتيـ   ـنِ على فتنةٍ وروعةِ سحرِ
ما الذى تشهدينَ فى صفحةِ الآ   فاقِ مما أدرى ومالستُ أدرى؟
هل تشيمين فى الخيال فراديـ   ـسَ نشيدٍ معطَّرٍ بكِ نَضْرِ
هل تشيمين مهجتى تتلقّا   كِ وتهفو إلى سناكِ وتَسْرى
أنا وحدى الذى يراك من الغيـ   ـب بفِكْرٍ يدقُّ عن كل فِكر
فاشهدينى هناك أنتهل الحـــب وآوي مع المساء لوكْرِى

حينما تغمضين عينيك هاتيـ   ـن على فتنة وروعة سحر
تستجيبُ الشفاهُ جفنيك لثماً   فكأنى لثمتُ روحاً بثغري
وأرى الحسنَ كيف يأسر نفسى   ثم يُلْقِى الفنَّ الجميلَ بِشِعْرِى
يا فتاةَ الأحلام لو لم أعاصِرْ   كِ لأحسست باليباب بعَصْرى
ولآنستُ فى خيالى وجوداً   لك يا بهجة الخيال لعمرى !
ولأغمضت مقلتىَّ وشاهد   تُ بعينىَّ ما يجنُّ ويغْرى

العوضى الوكيل



جواب

يا سيدى الفاضل ، قلتُ يقال للشيخ عجوز وللشيخة عجوز وعجوزة

يا سيدى قال الإمام ابن الأنبارى : يقال عجوزة بالهاء لتحقيق التأنيث ، وروى عن يونس أنه قال سمعتُ قول العرب عجوزة بالهاء . (رحيم)

تعليم القراءة والكتابة

كان معالى وزير المعارف قد أصدر قراراً بتأليف لجنة لبحث كتب التهجى والمطالعة التى بأيدى المبتدئين فى المعاهد المختلفة لمعرفة مدى فائدتها فى تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة ، ونقدها من جميع نواحيها ، ووضع طريقة لتعليم التهجى والمطالعة تكون سهلة جذابة خالية من العيوب التى قد تنطوى عليها الطرق المتبعة الآن ، ووضع كتب للتهجى والمطالعة العربية تفى بالغرض المقصود

وقد انتهت هذه اللجنة من وضع تقريرها ، ورفعته إلى معالى وزير المعارف . وكان مما جاء فى هذا التقرير أن كتب التهجى والمطالعة المستعملة الآن فيها بعض العيوب التى قد تعوق الطفل عن التقدم فى القراءة والكتابة ، وتحول بينه وبين الوصول إلى النتيجة المرغوبة فى زمن وجيز

وقد اقترحت اللجنة اعتماد الأسس الآتية :

أولاً : تربية الحواس عند التلميذ وتقوية ملاحظته اللغوية ، وذلك بالبدء بدروس المحادثة الشفوية على أن تدور حول ما يقع تحت حسه ، مع ملاحظة أن يكون المنطق سليما قدر المستطاع

ثانياً : متى مرن الأطفال على نطق الكلمات وأصوات الحروف انتقل المعلم بهم إلى تعليم التهجى والكتابة والمطالعة بوساطة الطريقة الصوتية فيبدأ بأصوات الحروف التى تقسم إلى طوائف ومجموعات متشابهة ، ولا تعطى دفعة واحدة ، ويبدأ بالحروف التى لا تتصل بما بعدها ، أو بالحروف المتجانسة فى كتابتها

ثالثاً : بعد تعليم الأطفال مجموعة من هذه الحروف تؤلف لهم منها كلمات سهلة واضحة ، ثم جمل قصيرة

واقترحت اللجنة أيضاً تجريب الطريقة «الكلية» التى أجمع على استحسانها علماء النفس فى الوقت الحاضر وأساسها أن العقل يدرك الأشياء على هيئة وحدات كلية ذات معنى ، وأما إدراك تفاصيل هذه الوحدات فإنه يأتى متأخراً . وأوصت اللجنة بأن يكون تجريب هذه الطريقة مبدئياً فى روضة واحدة من رياض الأطفال

التأريخ عند العرب

طلب الدكتور زكى مبارك أن يحقق أحد كتاب (الرسالة) تاريخ العرب قبل هلاك أصحاب الفيل ، وقال : هل يمكن الوصول إلى معرفة ما كانوا عليه (أى العرب) فى التأريخ قبل أن ترجّ أذهانهم واقعة الفيل ؟

وقد بسط القول فى هذا المبحث العلامة المؤرخ شمس الدين السخاوى فى كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) المطبوع بدمشق الشام سنة ١٣٤٩ فنجتزئ بما يأتى منه :

أما التأريخ الجاهلى فقد روى ابن الجوزى من طريق عامر الشعبي قال لما كثر بنو آدم فى الأرض وانتشروا أرخوا من هبوط آدم فكان التاريخ إلى الطوفان ، ثم إلى نار الخليل ، ثم إلى زمان يوسف ، ثم إلى خروج موسى من مصر ببنى إسرائيل ، ثم إلى زمان داود ، ثم إلى زمان سليمان ، ثم إلى زمان عيسى عليهم السلام وقد رواه محمد بن إسحاق عن ابن عباس

وفيه أقوال أخر : منها أنه كان من آدم إلى الطوفان ، ثم إلى زمان نار الخليل ، ثم أرخ بنو إسماعيل من بناء البيت ، ثم إلى معد بن عدنان ، ثم إلى كعب بن لؤى ، ثم من كعب إلى عام الفيل . قاله الواقدى

وعن بعضهم : كان بنو إبراهيم يؤرخون من نار إبراهيم إلى بنيان البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل ، ثم أرخ بنو إسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقوا فكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بمخرجهم ، ومن بقى بتهامة من بنى إسماعيل يؤرخون من خروج سعد وفهد وجهينة بنى زيد من تهامة ، حتى مات كعب بن لؤى فأرخوا من موته إلى الفيل ، ثم كان التأريخ من الفيل حتى أرخ عمر من الهجرة ، وذلك فى سنة ست عشرة أو سبع عشرة أو ثمانى عشرة

ومنها : أن حمير كانت تؤرخ بالتبابعة وغسان بالسند ، وأهل

صنعاء بظهور الحبشة على اليمن ، ثم بغلبة الفرس . ثم أرخت بالأيام المشهورة : كحرب البسوس وداحس والغبراء وبيوم ذى قار والفجار ونحوه ، وبين حرب البسوس ومبعث محمد صلى الله عليه وسلم ستون سنة

أحمد صفوان

١ — لابن المقفع لا للخليل

ورد فى مقال الزواج للأستاذ الكبير العقاد أن الخليل ابن أحمد أجاب وقد سئل فى قرض الشعر : أن الذى يرضاه لا يجيئه ، وأن الذى يجيئه منه لا يرضاه !

وقد قال الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين (الجزء الأول ص ١٥١) فى سياق الحديث عن السر فى تبرز الأديب فى فن من فنون الأدب وتأخره فى فن آخر : وكان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله . وقيل لابن المقفع فى ذلك فقال : « الذى أرضاه لا يجيئنى ، والذى يجيئنى لا أرضاه » . وإنى لأحس أن أستاذنا العقاد تطمئن نفسه إلى موافقة الجاحظ ، ولأن يصدر هذا الكلام من أديب كبير وكاتب عظيم كابن المقفع أقرب إلى الذوق الأدبى من أن يصدر من إمام لغوى نحوى كالخليل

٢ — شاعر وناقد

فيما دار بين الأستاذين الشاعرين من نقاش حول موضوع الرحلات العربية مسألتان نحويتان أرى الحق فى جانب الأستاذ رضوان فى الأولى ، كما أراه فى جانب الأستاذ عبد الغنى فى الأخرى ، وإلى القارىء البيان :

١ — قال الأستاذ عبد الغنى فى مقاله الرحلات عن البيرونى (... ويعد كتابه الثانى — تاريخ الهند — أوفى مرجع عن بلاد الهند وأملأ كتب الأسفار تعريفاً بها)

وهذا تعبير شاذ لأن أفعل التفضيل يعمل ما يضاف إليه ولا تصح العبارة إلا إذ صيغت « أملأ » إما من الخماسى ، وإما من الثلاثى المبنى للمجهول ، لأن الكتاب مملوء لا مالئ ، والصوغ منهما شاذ كما هو معلوم من القواعد النحوية التى يجب علينا العمل بها لأنها لم تستقر إلا بعد البحث واستقراء الكلام الصحيح . فالصواب ما قاله الأخ رضوان وهو : ويعد المؤلف أملأ المؤلفين لكتابه تعريفاً بالأسفار ...

٢ — قال الأستاذ عبد الغنى أيضاً : « وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب إلا أنها لم تكن منتجة بالنسبة للرحلات والأسفار » . وقد طالبه زميله بإعرابها وبيان جواب إذا وتخريج الاستثناء . وإنى أقول للزميل الفاضل : إن هذا التعبير صحيح وارد فى كلام العرب ، فجواب إذا الذى يبحث عنه ويشتاق إليه محذوف أغنت عنه جملة الاستثناء ، وجملة أضافت ... خبر كان ، وأما جملة الاستثناء ففى محل نصب كما وضح ذلك ابن هشام فى المغنى . ثم اسمع ما قال الخضرى على ابن عقيل عند الكلام على قول ابن مالك (ومفرداً يأتى ويأتى جملة) — ص ٩٣ — وتأمله يطمئن قلبك قال : (استشكل وقوع الاستدراك خبراً نحو : زيد وإن كثر ماله ، لكنه بخيل ، مع وروده فى كلامهم ، خرجه بعضهم على أنه خبر عن المبتدأ مقيداً بالغاية ، وبعضهم قال الخبر محذوف والاستدراك منه) . وإلى الأستاذين الفاضلين تحيتى وتقديرى .

٣ — النحو فى الكلام كالملح فى الطعام

غمض على حضرة الأديب أحمد الشرباصى هذا المثل المشهور رغم وجه الشبه ، وأشكل عليه ما كتبه الخطيب القزوينى فى كتابه الإيضاح ، فنسب الأديب المثل إلى الخطأ والفساد ولم ير المخرج من الحيرة إلا تحريفه عن الحكمة القائلة : الهزل فى الكلام كالملح فى الطعام . وأقول إن هذا المثل صحيح لا غبار على صحته لأن مراعاة قواعد النحو مصلحة للكلام لا شك فى هذا ، كما أن وضع الملح فى الطعام مصلح له . فوجه الشبه — وهو الإصلاح بغض النظر عن القلة والكثرة — جلى واضح ، وهذا هو نفسه قول الخطيب (فالوجه كون الاستعمال مصلحاً والإهمال مفسداً) وما وجه الشبه إلا المعنى الذى قصد اشتراك الطرفين فيه .

وأما الحكمة القائلة : الهزل فى الكلام ... فالوجه فيها هو التحسين والتمليح ولا يراد فيها الإصلاح (وإن كان ذلك من ضرورات التحسين) لأنه لا يشترط فى التشبيه أن يشترك طرفاه فى كل أمر من أمورهما ، فإذا شبهنا شخصاً بالأسد لا نريد إلا الجراءة بصرف النظر عن غيرها من الصفات ، وقس على ذلك مثلنا الذائع الصيت بين علماء البلاغة القدامى والسلام على سيدى الأخ ورحمة الله .

بدوى على بدوى
مدرس اللغة العربية بأسيوط الصناعية



الشـــارب

للقصصى الفرنسى جى دى موبسان

عزيزتى لوسيا :

لا جديد عندنا . نحن نقضى أوقاتنا فى غرفة الاستقبال ، نتلهى بالنظر إلى المطر وهو يتساقط ، وحيث أنه يتعذر الخروج فى هـذه الأيام العابسة ، فإننا نتسلى بتمثيل رواية هزلية ، ولـكن ... ما أسخف الروايات التى أعدت لتمثل فى الدور ، كما وردت فى القائمة الحالية ! ؟

إن كل ما فيها سمج ، متكلف ، غليظ ! ... ولا يقل فعل النكات التى تشتمل عليها عن فعل القنابل . إنها تحطم كل شىء مع أنه ليس فيها أدنى أثر للذكاء ولا للدعابة ولا للباقة !

حقاً إن رجال الأدب لا يعرفون شيئاً عن العالم ! إنهم ليجهلون كل الجهل كيف نفكر وكيف نتكلم ! فإذا أجزنا لهم أن يمقتوا عاداتنا ومواضعاتنا فلا يسمنا أن نجيز لهم أن يجهلوها . وهم إذا أرادوا التدليل على براعتهم وحذقهم لعبوا بالـكلمات لعباً غريباً من شأنه أن يزيل غضون ثكنة بأسرها ! وإذا أرادوا بعث السرور لجأوا إلى طائفة من النكات ... لا أشك لحظة أنهم إنما جمعوها من الشارع ... من تلك الحانات التى يدعونها « حانات الفنانين » ، حيث تتكرر منذ خمسين عاماً ذات النكات ، فيتناقلها الطلاب ويتوارثونها ...

إذن نحن نتسلى بتمثيل رواية هزلية ، ولما كان تمثيلها يقتضى وجود سيدتين ، فقد قبل زوجى أن يقوم بدور الخادم ، ولذلك اضطر أن يحلق شاربه . وليس فى استطاعتك يا عزيزتى « لوسيا » أن تتصورى مقدار التغير الذى طرأ على زوجى بعد حلق شاربه ... إننى لا أكاد أعرفه ... لا ليلاً ولا نهاراً !

وإذا لم يترك شاربه ينمو من جديد ، فالمرجح أننى لا أتردد

تصويب :

ختم الدكتور زكى مبارك مقاله المنشور بالعدد (٤١٧) من « الرسالة » بقول الله تعالى : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب سينقلبون » . والصواب : « ينقلبون » من غير سين

حول إهداء الحبر :

تضمنت الفصول التى نشرتها لى « الرسالة » الغراء بعض الأخطاء التى لا يحسن السكوت عليها ، ولذا نصلحها دفعاً للبس ومحافظة على دقة العلم وأمانته :

أهديت الفصـول إلى الأستاذ الفاضل منصور جرداق : (لا جردان ولا جوداق كما وردت خطأ)

(ص ٧٣٧ ع ١ س ١٨) سقطت كلمة « مصهورة » من العبارة : وهـذه الروايات تتميز أول ما تتميز بالفكرة العلمية « مصهورة » فى بوتقة الأدب الحى ...

(ص ٧٤١ ع ٢ س ٦) وردت كلمة « جعفر » وصوابها « جلفر » إشارة إلى : Swift's Gullivers Travels

(ص ٧٦٧ ع ٢ س ٢٥) تصلح العبارة هكذا : أما حقيقتها فهى الاندماج فى وحدة « الزمكان » كاندماج الماء والملح فى الماء الملح

(ص ٧٦٨ ع ٢ س ٢) وردت كلمتا السبب النسبى والصواب « النسبية » الناموس المشهور .

(ص ٧٦٨ ع ٢ س ٩) سقطت إشارات تفقد العبارة التالية معناها : المسافة = الزمن × السرعة = الجذر التربيعى لمجموع مربعات الأبعاد الثلاثة .

(ص ٧٦٨ ع ٢ س ٢٥) مسرعة خطأ وصوابها سرعتها

(ص ٧٦٩ ع ١ س ٣) تبدل علامة السلب (—) فى قانون فتزجيرلد بعلامة المساواة (=)

(ص ٧٦٩ ع ٢ س ٢) وحدة (الزمكان) وليس الزمان

(ص ٧٩٥ ع ١ س ١٧) وردت كلمة علوى وصوابها عمودى

(ص ٧٩٥ ع ٢ س ١٦) اسم الـكتاب هو : Human Worth of Rigorous Thinking

(ص ٧٩٥ ع ٢ س ٢٩) الصواب (دكستروز Dextrose)

(ص ٧٩٦ ع ١ س ٢) ترجمـة الضوء المستقطب هى : Polarized Light.

(ص ٧٩٧ ع ١) وردت كلمة ستيد مرتين ولا حاجة بى للقول إن صوابها (سليد) كما جاءت فى مرة سابقة

هذا عدا بعض أخطاء بسيطة نغفلها لأنها ليست فى صلب الموضوع والسلام .

خليل السالم

في خيانته لشدة ما يبدو لي دميماً بدون شارب !

والحقيقة أن الرجل لا يعد رجلاً بدون شارب ! أنا لا أحب اللحية كثيراً لأنها تكاد تدل على الإهمال دائماً ، أما الشارب ... أوه الشارب ! فإن وجه الرجل لا يستطيع الاستغناء عنه أبداً !

كلا ! لا يمكنك أن تتصوري قط إلى أية درجة تبدو هذه الفرشاة الصغيرة من الشعر ضرورية للنظر ... ولا سيما للعلاقات الزوجية !

ولقد عرضت لي في هـذا الموضوع طائفة من الخواطر لا أجرؤ على التعبير عنها كتابة ، برغم استعدادي التام لاطلاعك عليها شفاهياً بصوت خافت وبسرور وافر

إلا أنه قد يتعذر أحياناً العثور على كلمات تصلح للتعبير عن بعض الأشياء ؛ وأكثر هذه الكلمات التي لا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها تتخذ على القرطاس صوراً فظيعة لا أقوى معها على أن أخط شيئاً منها ... ثم إن الموضوع نفسه من الدقة والصعوبة بحيث يتطلب لباقة شديدة لمعالجته بدون التعرض لخطر

وأخيراً ماذا يمكنني أن أفعل إذا كنت لا أقدر أن أجعلك تفهميني جيداً ؟

ولكن اجتهدي يا عزيزتي أن تقرئي بين السطور !

أجل . عندما أبصرت زوجي بدون شارب أيقنت للحال أنه يتعذر علي أن أحب ممثلاً أو مبشراً ... حتى وإن كان الأب (ديدون) نفسه أوفر المبشرين جمالاً وأشدهم إغراء إذا كان حليق الشارب !

وعند ما خلوت بزوجي كانت المصيبة أعظم ! ... أوه يا عزيزتي لوسيا لا تسمحي قط لرجل حليق الشارب أن يقبلك إذ لا يكون لقبلاته أدنى طعم ! ... مطلقاً ! ... مطلقاً ! ... فليس في قبلاته ذلك الفلفل ... نعم إن الشارب هو فلفل القبلات وبهارها !

تخيلي رقاً جافاً أو رطباً يلامس خدك : هذه هي قبلة الرجل الذي يحلق شاربه ... إنها بدون شك لا تساوي شيئاً !

وقد يخطر لك أن تسأليني : من أين يستمد الشارب إغراءه إذن ؟ وهل تحسبينني أعرف ذلك ؟

أول كل شيء للشارب دغدغة لذيذة جداً . . . تحسينه قبل الثغر ، فيبعث في جسمك كله من قمة رأسك إلى أخمص قدميك رعشات سحرية تجتاحك كالتيار الكهربائي ... فالشارب هو الذي يداعب البشرة ، وهو الذي يجعلها ترتعش وتختلج ، وهو الذي يبعث في الأعصاب ذلك التنميل المعذب الذي يجعلك تتنهدين (آه) ، كما تفعلين حين يهز جسمك برد قارس !

وعلى النحر ! هل اتفق لك أن أحسست بالشارب يدغدغ نحرك ؟ إن دغدغته هذه لتسكرك وتشنج أعصابك ، وإنها لتنساب في ظهرك إلى أن تبلغ أطرافك ، فتتلوين وتحركين أكتافك حركة خاصة ، وتلقين رأسك إلقاءة خاصة أيضاً ، وترغبين رغبة قوية في الفرار والبقاء معاً ... إن قبلة كهذه لتستحق العبادة لشدة ما تبعثه من اللذة وما تحدثه من إثارة وتهييج

وعدا ذلك ... حقاً إني لا أجرؤ على ... إن الرجل الذي يحب زوجه يعرف كيف وأين يجد مواضع مختبئة ليدفن فيها قبلاته ، مواضع لا تخطر للمرأة حتى عند ما تخلو بنفسها ... وهذه القبلات إذا لم يتقدمها شارب لا يبقى لها طعم ، بل إنها لتغدو مخالفة للذوق والأدب !

ولك أن تفسري ذلك بما تشائين ؛ أما أنا فأفسره هكذا :

الثغر بدون شارب كالجسم بدون ثياب ! ... نعم ، لا بد من الثياب ، القليل منها إذا شئت ، ولكن لا بد من بعضها

والخالق قد ستر بالشعر جميع مواضع الجسد التي يدفن الحب فيها ؛ فالثغر الحليق إنما يبدو كينبوع عذب وسط غابة اقتلعت أشجارها

وهذا يذكرني بجملة لأحد رجال السياسة ما زالت تتردد في ذاكرتي منذ ثلاثة أشهر ؛ فقد قرأ علي زوجي ذات مساء في إحدى الجرائد خطبة غريبة لوزير الزراعة السيد «ميلين» ؛ ولست أدري إذا كان لا يزال إلى الآن في وظيفته أم حل غيره محله

لم أكن أستمع لزوجي ، ولكن هذا الاسم «ميلين» لفت انتباهي ؛ وقد ذكرني - ولست أدري لماذا - بالحياة في بوهيميا ، وخيل إلي أن الحديث يدور على إحدى العاملات المتأنقات ؛ فأصخت بسمعي ، وهكذا استطاعت بعض الكلمات أن تجد سبيلاً إلى رأسي

والسيد (ميلين) أدلى إلى أهالى إمبان — فيما أظن — بالتصريح التالى الذى ما فتئت أبحث عن معناه : لا وطنية بدون زراعة ! ولم أهتد إلى معنى هذه الجملة إلا فى هذه اللحظة . . .

وأنا كذلك أصرح بدورى : لا حب بدون شارب !

وقد يبدو ذلك مضحكا ، حين يقال على هـذه الصورة ، أليس كذلك ؟ لا حب بدون شارب ! ... لا وطنية بدون زراعة . . . ! لقد كان السيد (ميلين) مصيباً فى قوله هذا الذى لم أدرك معناه قبل هذه اللحظة ...

والشارب ضرورى من جهة أخرى ، فهو الذى يحدد صورة الوجه فيجعله لطيفاً أو رقيقاً أو قاسياً أو مضحكا أو جريئاً

إن الرجل الذى يرخى لحيته إرخاء تاماً ، ويترك جميع شعره (يا لها من كلمة قبيحة !) على خديه ، لا يمكن أن يكون فى وجهه شىء من الرقة ، لأن الشعر يخفى الملامح ، وشكل الذقن والفكين يدل على أشياء كثيرة ، ولـكن قل من يفهمها

أما الرجل الذى يترك شاربه ، فإنه يحتفظ بهيأته الحقيقية ورقته فى وقت واحد ، وللشوارب أشكال متعـددة تختلف عن بعضها اختلافاً عظيما ، فهى تارة : مقعصة ، معقوفة ، أنيقة ، وهذه يبدو عليها أنها تحب النساء فوق وقبل كل شىء آخر !

وهى طوراً : مسننة ، مهددة ، حادة كالإبر ... وهذه تميل للخمر والخيل والحرب !

وأخرى هى : غليظة ، مترهلة ، مفزعة ... وهذه تخفى عادة طبعاً حسناً ، وطيبة عظيمة إلى درجة الضعف ، ولطفاً لا يكاد يفرق عن الحياء والخجل

ثم إن ما أحبه أكثر من كل شىء فى الشارب ، إنه فرنسى وفرنسى بحت ، فقد تحدر إلينا من أسلافنا الغاليين وما انفك يتوارث حتى غدا سمة فارقة من سماتنا الوطنية

والشارب مهذار ، شجاع ، أنيق ... فهو ينغطس برشاقة فى كأس النبيذ ، ويعرف كيف يبتسم بظرف ، بينا الفك الذى تستطيل لحيته ، يبدو فظاً سمجاً فى كل ما يأتيه من حركات !

وإليك حادثاً استنفد جميع دموعى وجعلنى أفتن بالشوارب على ثغور الرجال : حدث ذلك خلال الحرب الماضية ، وكنت إذ ذاك فتاة صغيرة ، واتفق ذات يوم أن جرت معركة شديدة على مقربة من قصر والدى ، فأزّ الرصاص ، وقصفت المدافع منذ الصباح ، فلما هبط المساء دخل علينا قائد ألمـانى واتخذ له مجلساً بيننا ، ولم يلبث فى اليوم التالى أن غادرنا . . . ثم جاء من أخبر والدى أن فى الحقول كثيراً من القتلى ، فأمر بجمعهم وجلبهم للقيام بدفنهم

فجمعوهم ومددوهم على طرفى شارع الصنوبر من أوله لآخره ، ولما بدأت تنبعث منهم روائح كريهة أخذ الجنود يهيلون عليهم التراب فى انتظار الانتهاء من تهيئة الحفرة الـكبرى التى تتسع لهم جميعاً ، وهكذا لم يعـد فى الإمكان رؤية شىء من جثثهم ، ما عدا رؤوسهم التى كانت تبدو للناظر كأنها تنبت من الأرض صفراء مثلها بعيونها المقفلة و ...

وقد تملـكتنى رغبة قوية فى أن أراهم ، ولـكنى عند ما أبصرت هذين الخطين الطويلين من الوجوه الفظيعة ، شعرت كأنما أغمى على ... ثم رحت أستعرض هذه الوجوه وأنا أحاول معرفة أصحابها

كانت بدلاتهم الرسمية مطمورة تحت أطباق الثرى ، ومع ذلك فقد استطعت فجأة يا عزيزتى أن أعرف الفرنسيين من شواربهم !

كان كثير منهم قد حلقوا لحاهم يوم المعركة كأنما أرادوا أن يكونوا أنيقين لآخر لحظة من حياتهم ... ! ولـكن لحاهم قد عادت فنمت قليلاً ، لأن اللحى تنمو — كما تعلمين — بعد الموت أيضاً . . . وكان يلوح على الآخرين أنهم لم يحلقوها منذ ثمانية أيام ... ولكن كلهم كانوا يتميزون بوضوح تام بالشوارب الفرنسية الفخورة التى خيل إلىّ أنها تقول لى : أيتها الفتاة ! إحذرى أن تخلطى بينى وبين صديق : إنى من مواطنيك !

وقد بكيت يا عزيزتى ، أوه بكيت كثيراً ، أكثر بكثير مما لو لم أعرف هؤلاء القتلى بهذه الطريقة ...

لماذا قصصت عليك ذلك ... لا شك أننى مخطئة ... فقد بعثت هذه الذكرى فى نفسى كآبة شديدة ، جعلتنى عاجزة عن الثرثرة أكثر مما فعلت ؛ فإلى اللقاء يا عزيزتى لوسيا ، إنى أقبلك قبلات حارة ، وليحيى الشارب !!!

(القدس) ايزاك شموسه

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)